رواية

عواض شاهر العصيمى

أكثر من صورة وعود كبريت

أكثر من صورة
وعود كبريت

رواية

عواض شاهر العصيمي

بدأت : الأربعاء (٦ نوفمبر ٢٠٠٢)
الساعة التاسعة مساء.
مدينة الطائف.

" كانوا يقولون أنني أتجنب الصعاب من الأمور، وأؤثر بسهولة في النظارة، حيث أبرز حيزا معينًا بصورة أقرب إلى الرسم الكاريكاتوري.. الشطر الأول ليس بصحيح، والثاني صحيح جزئيا.. إنني لم أكن أتجنب الأمور الصعبة، إنما كنت أوجد لها حلولاً، بكل أمانة. وعندما أوجد لها تلك الحلول، كنت أنسجها وأربصها في ذلك الحيز "المبرز". عليك أن تلاحظ أن كل صورة تشتمل دائما على حيز واحد فقط يستحضر رؤيا الواقع، واقع الناظر، إن هذا الحيز فحسب، هو الحيز الهام والحاسم، شأن التوقيع على سند. وقد يقتصر هذا الحيز على العينين أو على يد أو على زر معدني بسيط مضاء بطريقة خاصة"

مقطع من "حديث مع غويا"
للكاتب البوسنى إيفو اندريت

".. إن الممثلين والرسامين – الذين يتكون جمهـورهم من عدد أقل – ينظرون أيضا إلى رءوسنا ووجوهنا ببصيرة نافذة. إنهم يصنفون أنفسهم على أنهم سفسطائيون أكثر ذكاء، وأنهم متعلمون بشكل أفضل من المصورين، وأنهم استوعبوا قدرا كبيرا من علم نفس القرن العشرين. وأن أعمالهم الفنية غنية أو مكونة من أفكار مليئة بالنوايا التشخيصية. فهل تريد أن تعرف إن كان موضوعنا مليئًا بالعنف النرجسـي؟ أو إذا ما كانت هي الحقيقة، الوجه الإنساني، وليس قناعا أيديولوجيا زائفًا؟

إن الصورة تختزلنا إلى بعدين، وتجعلنا صغارا بمـا يكفي لتمثيلنا على قطعة من الورق أو إطار فيلم، فقـد تـم تدريبنا على أن نرى العالم الخارجي الذي تـراه الكـاميرا، فنحن ننظر إلى ولا ننظر داخل، كما قـال أحـد الفلاسـفة، ونحن لا نسمح لأنفسنا أن ننجرف إلى ما نـراه، فقـد تـم ترويضنا على رؤية الخارج فقط، ونحن نكمل الباقي، نصل إلى تحقيق ذلك باستعمال الخيال.

إن ما تريه لنا الصور الفوتوغرافيـة هـو المظهـر الخارجي للأشياء أو الموجودات في العالم الحقيقـي، وهـذا مجرد جزء من الحقيقة. إن ذلك مجرد عادة قبل كل شيء."

سول بيلو
كاتب وأديب أمريكي

(١)

.....

في البلدة، الشوارع الخلفية الصغيرة، ترسم وتتشـقلب بالدراجات وبالمفرقعات تلعب، تصير طورا شهبا وأصـابع ناحلة تخربش في الفضاء، وتصير بذيئة بعدد الكلمات التـي على جدرانها طورا آخر، لكنها فـي كـل الأوقـات تظـل الشوارع الصغيرة التي تعلق على كل باب صافرة لشد انتباه الأولاد . تنسى أنها أيضا شوارع للكبار، وتنسـى رجاحـة العقل التي في الكتب تقول" الصمت حكمة". وهـي حـروق عابرة في سماء الحارة، وذقون مـدماة، ودراجـات ملونـة بأبواق زاعقة، وهي رحلة مضطربة وقت أن يشتهي الأولاد نزعها من تحت الأقدام ودفعها دفعا إلى علبة كبريـت فـي زاوية.

بعود ثقاب مشتعل، يخمش أحدهم قرن مفرقعة فتنفجر محدثة خللاً في السمع ثواني معدودة، ثم يتبع ذلك صرخات ودعس بالأقدام على الأرض. يضحكون بصوت عالٍ، وتشع في العيون صورا أولية عن المشهد. إصبع من الورق فـي قلب الحارة انفجر. شهود العيان، في المكان، هم الذين وقفوا

يتضاحكون ويتجالدون بأصوات حادة تحت شرفات البيـوت الخالية. بيد أن المكان ارتج تحت الأكمـام المطويـة إلـى الخلف. وانتفش الغبار مكان السواعد الصغيرة العارية فـي محيط الصعقة. وكانت النتيجة أن تهشم الكثير مـن السـخط على الفتيان. يقود الحملة عليهم، الكبار الذين فـي الغـرف يرتدون أوقاتهم بحساسـية الفراشـات. لكـنهم، كالعـادة، سيترقبون بلا حول دوي المشـهد التـالي، دون أن يحـرك جمعهم ساكنًا. أما الفتيان، فكأن مهمتهم الوحيـدة مطـاردة الهدآت، وبث النار في أجنحة السكون بالحي. لا يتطلب ذلك الكثير من الجهد والاستعدادات المسـبقة. تقـوم بالمهمـة، ريالات معدودة يمرق بها أحدهم إلـى بـاب متـوارٍ عـن الأنظار، أو إلى مجمع تجاري يجلس أمامه نسوة يفترشـن الأرض. وبمجرد أن تتبادل الأيدي مـا بحوزتهـا، تخـرج الصفقة برائحة البارود.

هناك أكثر من خلسة في الطريق الـذي يصـل بـين المورد والتاجر من ناحية، وبين التاجر وصغار الموزعين ثم دوائر الفتيان والأطفال من ناحية ثانية. والخلسات المنضودة بإتقان بين كل نقطة ونقطة، يدخل فيها القش الـذي تضـيع

بداخله الإبر. القش المفرغ عمدا من أسنان مقشـة أو مـن وشاية كبريت على الحافة. لكل طرف خلسته التي تخصـه. المورد يدحرج بضاعته في المعابر ونقاط التسليم، ببدٍ جاهزةٍ للمصافحة وإنعاش الهواء الدائخ في الزحام وقـت الحاجـة. التاجر يرص بضاعته في المخازن ولا يبديها لغريب خشـية سوء الطالع.

لكن الأطفال بهياكلهم الصغيرة الصاخبة، هـل لـديهم وقت للإصغاء والطاعة، عندما يتعلق الأمر بانفجار مفرقعة تم بمحض رغبتهم؟. لا علاقة للكبار بالمسألة. إن أكثر مـا سيحدث للكبار هؤلاء، هو أنهم، متشبثين بفـرش الراحـة، سيتململون في أماكنهم، ثم يسكبون ملافظهم البذيئـة علـى الشارع وأهله. بعضهم سيتحدث بحزن عن التربية المفقـودة وإهمال الآباء، بينما يوافق البعض الآخر على إهمال الآبـاء فحسب. بعد ذلك، ماذا؟. لا شيء البتة. سينامون في النهايـة وفي أفواههم رميم كلام غابر.

آنذاك، سمع حافل أحدهم يقول: من يعمل التفكير فـي هذا الأمر، يسلم بنتيجة واحدة، هي أن الجميع يستغل الجميع

لينفجر. المـورد، الجمركـي، التـاجر، الأطفـال، الآبـاء والقوانين.

أما هو، حافل، فلو كان سأله أولئك الـذين ينظـرون للمسألة من ذلك الوجه، لكان سيجيبهم على النحـو التـالي: سيأخذهم إلى أحد الميادين الرخوة في الحارة، ثم في يد كـل واحد منهم يضع بضع مفرقعات وكبريتًا. وفـي الومضـة، سيرى الجميع أنهم يطيرون بأجنحة لا مرئية في السماء. لن يحتاجوا إلى عمر إضافي ليقوموا بالتجربة. فقط يدخلون في الومضة الخاطفة بأعمارهم المتوفرة وبسرعة ذوبان كل منهم في مخروط الضوء الماثل آنذاك. بعـد انقشـاع الضـوء، سيعرفون أنهم عادوا إلى الأرض بمجرد أن يـروا الرمـل الثائر من حولهم يهدأ، والهواء المضطرب يعود إلى وضعه الساكن.

يعتقد حافل أنها لوقاحة كبيرة أن يعلم الفـك السـوية كيف تقوم بالحركة الصحيحة لفتح وإغلاق الفم؟. أو كيـف يقشر اللسان الضالع في الحكمة، تلك الطبقة السـميكة مـن الخبرات المتراكمة في البلاغة وفن الكلام من أجل الاستحواذ على بضع كلمات تافهة تقال في غمرة انفجار "طرطيعة". إن

العقل الكبير لا يصبح كبيـرا عنـد الحكمـاء والراشـدين إلا عندما يضع لعالمه عالما آخر يقابله من الصغائر وتوافـه الأمور. لكن الأشياء ليست كلها تقيم بعين واحدة ولا تُـرى من مكان واحد. فالطفل ليس بالقدمين يقـيس حاجتـه مـن الأرض، كما يتصور حافل أحيانًا، وإنما بمقدار ما لديه مـن إدراك ومنطق في الوصول إلى لعبه وإلى أترابه من أقـرب طريق. من خلال هذا الإدراك وهذا المنطق، فما عساه الكبير فاعل ليكون أحكم منه أو أعقل يا تـرى؟!. لفافـة صـغيرة محشوة بالمسحوق الناري تنسف الفرق. عـود ثقـاب جيـد الاشتعال يحرق الادعاء بالتمايز. إن قفزة خيال رشيقة أعلى قليلاً مواهبه في التفكير، لا تلصق بالطفل صفة الجنون. كما أن أصابع إضافية للعبث وتفريخ اللهو في الساحات لا تعني أنه مشوه اليدين. كلما هنالك أنه أحكم التصويب نحو متعـة يريدها بشرارة من النار.

لكن، ما الذي يجعل تلك اللفافة الملفقـة مـن الـورق شرارةَ حياةٍ نافذة في العظم لأناس، ومصدر فناء لآخـرين؟. إنه البارود. في الواقع، لا سحر ولا جاذبيـة لتلـك اللفافـة بدونه. بل يمكن القول ألا سلطة لأشياء كثيرة في هذا العـالم

بدونه. من تلك الأشياء، وليس الفريد نوبل يعلم ذلك بالطبع، العم قائد الأشول، مجنـون المكـلا ومقـلاع التصـميمات العمرانية الأقدام في الحارة. بعد أن أدركه الغرق في الستين وتعب من مزاولة المهنة كمعلم بناء عتيد، لعب جيدا بأفكـار جماجم غنية كانت على وشك الانفجار، فخرجت من أكمامها أصابع البارود إلى الشوارع ترقص، وتطير، وتقهقـه فـي السماء، وتنفجر، بينما يفكر هو في مكان آمن لرزم الأوراق النقدية.

إنه البارود، المادة التي نهشت إصبع حافل ذات يـوم فكظم غيظه على أمل أن يلبسه خاتم فضة بفص عقيق يمان باهظ الثمن. رائحته تثير في الرأس عند شمها ردة فعل باردة لكنها محيرة. رائحة فحم عادية، للوهلة الأولى. غيـر أنهـا سرعان ما تؤجج رذاذها في التجـاويف فتحرقهـا بقـرابين كيميائية فاجرة. طعمه الحـامض بعـض الشـيء لا يشـد الاهتمام. مسحوق أعزل من الأسلحة في الظاهر. لا يعـرف بالضبط من يقوم بإدخاله إلى الـبلاد، ولا مـن إي مكـان جاء؟.. لكنه حالما ينفجر في تلك اللفافة الورقيـة الرديئـة، يسطع وميضه في الدماغ كنصل. يشل عصـب الأطـراف.

يدخل مغزله الناري في الرئة، ليبقى الفم مفتوحا كمشـاجرة في بدايتها، أما العينان، فللدهشة التي تـرتطم بهمـا خـلال الومضة كل الحق في جعلهما مجـرد فقـاعتين ضـخمتين تمتصان بنهمٍ المكان وما فيه.

بعد ذلك، هل كان يهمه غضب المرابطين في غـرف النوم طوال الليل؟ أو هل كان له أن يعبأ بالحارة كلها وبمـن فيها؟ على كرسي ضئيل من الرمل الناعم كان يقعدها ويشعل فيها النار. الحارة بكاملها، إلى أعلى قليلاً، كان يشد فتيلتهـا الملحاء. إلى أعلى، بالمقدار الذي يسمح له بإلقامها ضـرع النار الصغير الخارج من عود ثقاب. بوم، بوم، بوم، مرات عديدة في خط مستقيم أو دائري وبعد ذلـك يـتخلص مـن حطامها ومزقها الذاهلة وهو يمعن في الخروج مـن غبـار الرجفة. أحيانًا، يطيرها إلى السماء كفرشاة مشتعلة ثم يراقبها وهي ترسم حيطانًا جرداء ونوافذ مخلعة في الليـل الفـوقي الرطب على الأرجح. في كل شارع حتى يتعب وتميد مـن تحته الأرض، كان يعيد تركيبها لينسفها أو يطيرها من جديد.

أترابه الملبدون بدخان آباء غـائبين طـوال الوقـت، وضعوا أيديهم فوق يده وبايعوه أبا صـالحا لا يغيـب عـن

العين. ملأت مخيلته في اللهو، رءوس بشر غامضين فانقلبوا بلا عناوين محدودة يدقون في الجدران رسوما أشاع النـاس بأنها تشبهه ومدوا وراءها ظلالاً طويلة إلى أبعـد الحـدود. كان لا يفهم كيف يمكن لصور بتلك الأشكال أن تخرج مـن أيديهم بسببه. وفي كل الأحوال، يشك في أنه يشبه شيئًا ممـا رسموا. مثلاً، ما كان ليخطر بباله قط أن يراه محلقًا بشـفتيه حول أسنانه وكأنه يتألم من جراء مغـص حـاد أو بسـبب إمساك عنيف بينما يقف جدار مترل ضابط شرطة كخلفيـة صلبة له. تلك الصورة أزعجته كثيرا رغم أنهـا لـم تكـن بالشكل الذي يمكن أن يقرر من خلاله ما إذا كانـت تشـبهه أم لا ، كما أن الخلفية كانت تفتقر إلى الانسجام مع الصورة. فضابط الشرطة ذاك، كان أكثر شخص يضـطهد مسـراته ويقف لمتعه بالمرصاد. ورغم ذلك لم يكن جدار منزل ضابط الشرطة سبب انزعاجه، بل كان معنى الصورة. كان المعنى أنه بتلك الابتسامة أو تلك الدائرة البلهاء حول أسنانه، يبـدو منافقًا للغاية ومتلمظًا لمن يقترب من الجدار ويتأملـه. أمـا عموده الفقري فمعقوف كقرن خروف إلى الـوراء وينتهـي طرفه العلوي بعيدا عن رأسه. كثيرا ما كان يجـل شـطحة

الصواريخ وهى تعمل في السماء تلك الخطوط المنحنية قبـل أن تنفجر. أما أن ينتهي عموده الفقري إلى تلك الدرجة مـن الانحراف على أيدي أولاد ملاعين فذلك مـا كـان يغيظـه بالفعل.

وفي رسم عثر عليه مصادفة على الجزء الخلفي مـن جدار العمدة بريكان لباد، كان يطفو على دموع مثل الطوفان من حوله. لولا ظل أسود شده للطرف السفلي لنافذة كانـت بموازاته، لسلم بأول حالة غرق خرافية لإنسان على جدار.

وعلى ظهر حوش واسع كثفت فيه مخـازن ضـخمة تأملاتها التجارية، رسموا وجهه فقط. دائرة بحجـم طـوق النجاة المخصص للأطفال، تتوسطها دائرتان صغيرتان همـا عيناه بالتأكيد. ثم، ودون أن يتوقف ذلك، تنشق أسفل الدائرة عن أسنان كثيرة إلى أن تخترق الأرض الصـابونية التـي تحته.

كانت كل الصور بظلال سوداء تنسحب إلـى الخلـف البعيد، وكانت في كل مرة تجيء، تقترن باسـمه. لا بـأس. ذلك ما كان يؤكده في الغالب، وهو يحك بأظفاره بقعا وهمية في الهواء. بمجرد أن تصبح أظفاره نظيفـةً، كـان ينسـى

الأمر، وينهمك في عمل أسهل الأشياء، كان يسوق أفكـاره العشوائية بين أفراد شلته متخذًا من تعليقاتهم الماجنة رءوس أقلام تنفع في إنضاج الفكرة، أو في تدميرها. أو كان يطرق باب العم قائد في طرف الحارة برزمة صغيرة مـن المـال، والذي كان بيده اليسرى ذات الأصابع الأربعة، يأخذها خطفًا، قبل أن يسمح له بالدخول إلى بيته الواطئ الملطـخ بأنفاسـه ورائحة الطبيخ في مواعينه. وفيما كان يغيب فـي حجـرة أخرى أصغر حجما، كان حافل يجوس ببصره في حاجياتـه الشخصية بلا هدف محدد. كان ينتظر فحسب عودته بحزمة أو حزمتين من المفرقعات من الحجرة التي جعلها مسـتودعا للألعاب النارية. ثم أن الحجرات الـثلاث التـي يسـتخدمها لا تحوي الكثير من المتاع على أي حال. فراش في غرفـة الجلوس من النايلون الملون، ممزق الأطراف ومبقع بالنـار. مذياع ناشيونال قديم مضبوط على إذاعة اليمن ليلاً ونهـارا، ومزود بهوائي محلول القاعدة، دولاب خشـبي فـارغ فـي حجرة، ومشاجب عليها ثيابه وفوطه معلقـة فـوق سـريره الحديد في حجرة مجاورة، مواعينه اللائذة بأرضية المطـبخ تنقض عليها فتحة كبيرة من الجدار الذي فوقها طوال الوقت.

ما يعني أن الحدود بينه وبـين الغبـار والقـوارض وبقيـة الحشرات غير قائمة أو بالأحرى ليست لها الهيئة الاحترازية التي للواجهة.

وكان يتساءل، كلما نظر إلى حياة العم قائد المتداعيـة تلك، ألا يبقي من المال الذي يحوله بانتظام إلى المكلاّ، مـا يساعده على توفير الراحة في سكنه؟ عندما كان يظفر منـه مثل هذا المعنى أمامه، كان يقول له أنه يعيش عيشة الملوك. ثم يعلل وجوده بوضوح ويقول أنه جاء بحثًا عن المال وليس عن السكنى. غير أنه في كل مرة كان يصل إلى هذه النقطة، كان يجلس قبالته وقد اصطبغ وجهه بجدية باهرة ويؤكد لـه أنه لم يفارق أهله قط. وأنه منذ ربع قرن، وهي المدة التـي قضاها في الحارة، يعيش هناك، في المكـلا وفـي جزئهـا الجنوبي على وجه الدقة كل ليلة!. وأنه ينام هنا جسده بينمـا روحه وبصيرته تقضيان الليل إلى جوار زوجتـه وأولاده.. منذ ربع قرن وهو على ذلك الحال!. كل ليلة يمدد جسده في الغرفة ويغطيه عن أسباب التلف، ثم ينسل مسافرا بروحـه ومشاعره إلى اليمن؟. ولطالما تساءل حافل مسـتغربا: مـن يصدق ذلك الكلام؟

وفي الواقع، لم يتوغل معه إلى نقطة أبعد. بـل كـان يكتفي بخطف البضاعة من قبضته، قبل أن يعـود لتشـغيل لسانه لفترة أطول. كانت تشغله عنه رائحة حزمة المفرقعات التي في يده. رائحة الحزمة الطازجة التـي ترهـف دائمـا يقظته، وتعلي من مستوى استعداده. وكان في جذل، يتخيـل السماء وقد أراحت قبلتها الشفيفة علـى كرنفـال أضـوائه المنعكسة على الخزانات العلوية والهوائيات. على الـرءوس المترهلة في المخادع. على الجباه البـاردة. علـى الأعـين المطحونة بالفراغ والكوابيس الليلية، كما كان يردد. بأشـكال سديمية متعددة يعبئ الهواء وينقيه من الخرس الصاعد إليـه من قلب الحارة.

في وجهه وساعديه، بثت المفارقة غزلهـا الأصـهب ونبشت في يديه عن محاريث مسنونة، وطمي سـيول لهـا عويل رجال هرمين. كولي أمر مزعوم، يحيك أترابـه فـي العلن الخرافة عنه. وفي الخلفاء تـنفخ الرسـوم برموزهـا الغريبة والغامضة وجوده. بلحمه وشحمه وصخبه في ناحية، وبهيكله العظمي وصمته المطبق في ناحية أخرى. أولاد هنا،

وأولاد هناك. وفي الحاجز الذي بين هذا وذاك، يرى لا شيء يتكهن بالإجابة على سؤال ماذا يمكن أن يكون في المستقبل؟

يريد أن يصبح أكبر تاجر في البلـد يبيـع الألعـاب النارية. يريد أن يصبح عمدة الحارة. يريد أن يكون ضـابط شرطة. حسنًا، إذا كان هذا هو المستقبل، فإلى أي حد يمكنه البقاء محتفظًا بتوازنه أمام انفجار طرطيعة؟. سوف يكـون وقتها في هواء رغوي يلذع الرئة. سيسطع الـوميض فـي الدماغ كنصل. مؤقتًا، أطرافه ستتوقف عن أداء مهامها فـي المجتمع. وبشكل تلقائي سوف يهوى مع أشلاء مفرقعة إلـى الأرض رغما عنه. سوف ينفجر في مفرقعة أخرى. لديه ما يكفى من البارود في الداخل ليتفجر على دفعات وفقًـا لمـا يحدث في الخارج. سوف ينادي في الناس: أنا تاجر الألعاب النارية. وسوف يجيبون: ها هو يكشف عن أسـنانه اللبنيـة ويرضع إصبعه أخيرا. سوف يصيح في الحي: أنـا عمـدة الحارة. وسوف يكملون: في يده كبريت "أبو شعلة" ويركض في شارع الأولاد الذين يسمون أنفسهم الشـياطين السـبعة. سوف ينتفخ أمامهم: أنا ضابط الشرطة. وسوف يتمتمـون:

ها هو يحل بسطاره في النهاية ويعترف أنها أكبر من مقاس قدمه.

وفي الواقع، لم يحدث أن اكترث بزمنه لينظـر مـن خلاله إلى مستقبل على تلك الشاكلة. فتجار الألعاب الناريـة ليسوا في مدى صواريخه الصغيرة التالفة معظم الوقت. كما أن كفه التي بالكاد تحتضن ورقة من فئة الريالات الخمسـة، لم تصعد يوما طوابق المدينة لتجرب كيف تكون مصـافحة تاجر مفرقعات. أما عمدة الحارة، فليس كثيرا يفكر في أمره. أكوام النشوة الصغيرة لألعابه، تدفعه لأن يقسم أن السوس لن يأكل عظامه كما يفعل مع أريكـة العمـدة. لا يحـب لـداء المفاصل أن يفرح به في وقت مبكر. العمدة لا يركض مثله في قضاء شئونه. لا يستعمل يديه في تقليـب الأرض كمـا يفعل هو معها كل يوم. ربما من أجل ذلك، احتاج العمدة إلى العصا لتتوكأ عليها ساعات دوامه. كما لم يفكر حافـل فـي مستقبله انطلاقًا من أن شيئًا آخر سوى ألعابه النارية يمكـن أن يكون مهما، إلا إذا كان لزاما عليه أن يصـبح شخصـا آخر. ولكن، مثل من؟ . ضابط شرطة؟ لا يتصور أن نهايته ستكون على تلك الدرجة من سوء الحظ. فهو شخص متفائل

وينبغي أن يكون كذلك على الدوام. حسبه أن يطرق باب العم قائد ليحظى بمطالبه. كوب الشاي الذي يقدمه، ينوب فـي وران الحاضر فيه عن طعم مستقبل في مسـتودعات غيـب وراء الإدراك. لم يفكر أن يكون عمدة في أي وقت. لم يسـبق أن ألهب ظله بالسوط منتضيا هيئة ضابط شرطة يحث الخطـى قافلاً من عمله. مجرد قامة قصيرة احتكت بالهواء فاشـتعل في أطرافها عود ثقاب ومفرقعة.

نكث الرمل، فعرف أنه في حدود الومضة، يكبر. بين العتمة والضوء، يلفق للجميع الترهات والأوسمة. في الدوي، يكثف الضربة القاصمة التي تخبئها القشة للبعير. لكنه رغـم ذلك، ملتصق أيما التصاق بإبرة الحياة من حولـه. أرخبيـل طيور مسافر في قنينة. برية واسعة تموج في عين صناعية. لم يكن ذلك الاستنتاج صعبا للغاية. فقد كان في نظر أولـي الألباب من أهل الحارة ذلك الولد الذي يحشو الآذان بأصوات زاعقة، خارج الغرف معظم الوقت. وبـين داخـل الغـرف والخارج، يكاد يكون للحياتين نفس الملمـس الخشـن فـي الظاهر. نفس الأفعال. الأصوات ترتطم بالجدران مثل قدور وليمة في شاحنة على طريق جبلـي. الغضـب، الانفعـال،

الصراخ، الضرب، البكاء، في الداخل. في الغرف المزينـة والمدهونة جيدا كما جرت العادة. غير أن مـا يصـم الآذان عندهم هو ذلك الذي يحدث في الخارج. ومن قبل ذلك الولـد وحده. الانفجارات ، الصراخ، الضحك، الـركض، العـراك والسباب المبتذل. الدخان الهارب من جسد مفرقعة، والبراح المشوش المذعور. إذًا، لماذا يرتد ابن الشارع إلى الغـرف ويقلب فيها الوسائد على الرءوس الوديعة؟. لا بد أن يسـألوا هذا السؤال. وفي أحاديث عارضة طرحوا سؤالاً آخر:

- أين الشرطة من ذلك المجنون؟

وهكذا ، تململت في قلب البيضـة الصـامتة مضـغة الحدث السعيد. صوص بغضاريف حديدية ومنقار أحمر في مواجهته. هكذا دخل المخفر بتهمة إزعاج المصلين، وإقلاق راحة السادة وجهاء الحي.

(٢)

على أحد المقاعد الخلفية لجيب الشرطة جلـس. رأى السماء تفر من ثقوب الشراع الذي فوقه. نظر إلـى أسـفل فرأى أرضه وسخة وضيقة. ظهره مسنود إلى جـدار مـن قضبان خشنة كأنها محفورة بالأظافر. أما وجهه، فأمامه متر من الهواء والتقاط الأنفاس. باختصار، رأى نفسه داخل خيمة مغلقة على صندوق جيب للشرطة، يمضي قدما إلى هدفـه. من قدمه صوتت بلا أدنى تردد، صـافرة الخـط الأخيـر. لا مفر. لقد وصل نهاية المضمار. وهاهو يلمس بيديه النقطة التي كان يفترض أن ينفجر عندها صاروخ أطلقه منذ زمـن ونسيه. تقلصت أضلعه في لفافة جديدة من القطن هذه المـرة لا من الورق. وأخرج قلبه مطرقة حداد راح يدق بها صدره بلا هوادة. وفي كل مرة، يتوقـف الجيـب أو يهـدئ مـن سرعته، تسحبه إلى لفائفها حبال سميكة تقوم وحـدها بـدور البطولة المطلقة في ساحة إعدام. وتخيل رأس الضابط يغطى الحائط الذي خلفه، وفي تجاويفه الكثيرة قـرارات بـالحبس،

وقرارات بالضرب، وأخرى بالمنع من النوم، والكثير من السباب الضروري لتحطيمه.

في دمه، نزل مبكرا رعب حقيقي من أي جيب شرطة يمر. ومنذ طفولته، ليس يعلم من دس في رأسه عريضة توصيات بالقلم الأحمر تحذره من الشرطة. من كل شرطي يدب على وجه الأرض. وكحبوب للنمو القسري، تعايش مع الوصية، وألحق بها كل ما يتعلق بسيرته من خرافات، وأقاويل على أنها لا تمت له بصلة. وتحدث في صمته.

- إن كنت ذكيا فهات البرهان يا جدار. يا أطفال الشوارع الملاعين، ليس بالفحم يمكن إثبات أن ذلك الرأس المدور في جدار ضابط الشرطة يخصني.. من قال لكم أن الأمور سائبة إلى الحد الذي تفترضون فيه غبائي وصمتي، لترسموا وجهي بذلك الشكل الأخرق؟. من قال لكم أني بتلك الابتسامة البلهاء، يمكن أن أسامحكم، وكأنني لست في طريقي إلى ضابط شرطة لديه كل الوقت لانتظاري وتفحصي من رأسي حتى أخمص قدمي قبل أن يحقق معي؟

واخترق ذهنه بعنف مشهد وقوفـه أمـام الضـابط، فاضطرب، وأثقلته تفاصيل اللحظة المنتظرة، بشعور الفتـى المنهزم المنكسر قبل أي شيء آخر. ها هو يتخيله الضابط ، في كل مكان، على تلك الصورة المريعة، وقد اسـتعد فـي مكتبة لصفعه ورفسه وتعليقه من أذنيه وحرمانه من الكـلام. أكثر ما كان يخيفه هو ألا يمنحه الفرصة ليقسم له أن تلـك الصورة لا تشبهه على الإطلاق. سوف يتوسل إليه أن ينظر إلى وجهه بتمعن ليرى بنفسه كم هو شاسع الفرق بينه وبـين الرسم. إن كان هناك وقت، سوف يشرح له أن تلك الصورة إنما رسمت بالليل لهدفين ليس هناك أشد منهمـا وضـوحا. أولاً، ليعطوا عنه انطباعا شيطانيا في ذهن كـل مـن يمـر بالصورة من أهل الحي ليكرهه ويحذر غيره منـه . ثانيـا، بإمكان الضابط أن يستنتج بكل سهولة أن الهدف من رسـمه بتلك الطريقة على جداره، إنما هو للوشاية به عنده. الهـدف هو أن يأمر بالقبض عليه وإحضاره إليه وقد أيقن من خلال تلك الصورة، أنه سيرى واحدا من الأبالسة وقليلـي الحيـاء الذين لا يحترمون القوانين ولا المثل العليا في المجتمع.

ولعله يرق عندما يصل إلى هذه النقطة. عندها سوف ينتهز حافل الفرصة ليحقق له مفاجـأة لا يسـتهان بهـا. أن يظهر له أنه بخلاف الأبالسة، وديع وهادئ ولديه وجه طفـل مليء بحبوب سنوات من المراهقة، على الأقل. سيظهر لـه أنه ليس قليل الحياء بالشكل الذي يناسب جسـمه النحيـل، ورقبته المنهكة من شدة الهزال. ويسأل نفسه مسترشدا:

- هل يستحسن وقتهـا أن أبكـي وأذرف الـدموع لأمنحه دليلاً آخر على أني لست أكثر مـن ولـد طيب تورط في لعبة مزعجة ومؤذية للحي؟

إن سأله الضابط عن أهله، ماذا عسـاه أن يقـول؟!. سوف يخبره أنهم جميعا ماتوا. وأنه وحيد لا بيت له ولا أهل وأنه بحاجة إلى وقت طويل ليعقل ويستعيد توازنه. غير أنه يعود ويذكر نفسه ألا يبدو له غبيا حد أن يتجرأ بين يديه بهذه الكذبة. فأهل الحي يعرفون أنه يضوي كل مساء إلى دار أبيه وأمه الحيين. وأن أباه تحديدا، يعيش أخصب سـني عمـره، بعدما تزوج بفتاة شامية في التاسعة عشر من عمرها أخذتـه معها بضمير مرتاح إلى نعيم لا يخرج من إلا لماما. عليه أن يخترع له صورة جديدة مغايرة لتلك التي على جداره ليحظى

بعذاب نزيه. الذي لا شك فيه، هو أن لا أحد سواه يستطيع أن يرسم نفسه بالدقة التي يريد لو كانت لديه القدرة على الرسم.

حينما يكون في الشارع بأقدام ترتجف من التعب، لأنه أفرغ في التراب حزما عديدة من المفرقعات، ولأنه شنق الهواء بالصواريخ، ولأنه غمر الجدران بلغط وفير منذ الصباح، وفي زاوية مرح، تلتقط ذبذبات لهوه أجهزة شرطة الحي، فتجيء مباشرة إلى النقطة التي وقف فيها بفم مفتوح ينظر إلى مفرقعة صغيرة تسقط على قدمه وقد علم أنها خط النهاية وليس بعدها إلا الجيب، حينما يكون كذلك فإنه لا ريب لن يفكر في اللعب. ولكي يكون بشرا عاديا، يتحتم عليه أن يتنازل قدر الإمكان عن قارورة الخرافة التي صنعها له أصدقاؤه البعيدون عنه الآن. عليه أن يصدق أن الجنود الذين حضروا لأخذه، لا يقيمون وزناً لأسطورته ولا للخرافات التي قيلت فيه. سوف تملأ الفضاء كركراتهم العالية وهم يتحدثون عن زوجاتهم البدينات، بينما في يديه يضعون القيد.

أصدقاؤه، نعم، تحدثوا كثيرا عنه في السـابق. قـالوا أشياء يعجبه أن يسمعها تردد على الألسن بين وقت وآخـر. وذكروا أشياء لم يكن يؤمن بها في الواقع، لكنها قيلت علـى أي حال وأصبح من العسير أن يتجاهلها. تحدثوا بأنه قـاوم خفافيش صغيرة مسمومة بثتها له من نسائم الغروب مهاجرة أفريقية على علم بالسحر تسكن في أقصى حارة بالبلد. قالوا أنه قاومها بوابل من الصواريخ الصينية "مسافر القمر" التـي لا تخطئ، أهدافها مهما كانت بعيدة ومراوغة. وأنه ، لحظتها سمع صراخ العجوز وقد أصابها العمى تناديه أن يبقي قدميها سليمتين لتحج عليهما وتصلي في مكة صلاة مودع. أشاعوا عنه، أنه بعدها أكتسب قوة السحر في تحطيم الأنداد. وأنـه بسبب ذلك، وبمساعدة بسيطة من العم قائد خاص فـي علـم التنجيم واستقراء أثر الأفلاك في التـأثير علـى الأمزجـة والأهواء. أليست الكواكب جزءا من السقف الكـوني الـذي يستهويه النظر إليه ما أن تغوص في ثنياتـه مأدبـة ألعابـه النارية؟. أو حين تتهاوى من أركانه ظلمات الفراغ بعد كـل حفلة؟

أصبح يترصد أحوال الحارة من يوم إلى يوم. يغتـنم اليوم الذي تسترخي فيه الأوداج، وتـروق فيـه النفـوس المضطربة، فينصب لها الشراك من قاب الشـارع ويكثـف زخم المناورات. لم يكن مهما لديه من يسقط في الشرك أولاً. غير أنه كان يفضل ألا يخرج أحدهم رأسه من النافذة ليعلن انزعاجه الفادح منه ويسميه بالاسم. كـان يحبـذ أن تكـتم الجدران غضبها عليه ولا تصرح به للخارج. فقـط يسـمعه يتر من الحيطان مثل صوت آلة تنظيف عجفـاء، أو ثقـاب كهربائي مختل الريشة. أن تتململ في الداخل وقـد أصـابها الإعياء من الغيظ ولا تملك الفرصة في التعبير عـن الألـم والإحباط بسببه.

أصحابه لم ينسوا طبعا، قدرته الغريبة على التنقل من مكان إلى آخر في وقت واحد. قالوا أنه حاز تلك القدرة مـن الفائض الشيطاني الذي كانت تمحضـه إيـاه شـهيته فـي امتصاص الطاقة الشمسية العاتية كل صيف. بيد أنهم نسـوا أو تناسوا شيئًا لا يمكنهم إضافته إلى قارورة أساطيره التـي يحملونها له في كل مكان. نسوا الشرطة. أو هذا الجيب الذي يلعق الإسفلت في شارع عام مزدحم بالسيارات، وقد بدا على

راكبيه الملل، واجتاحتهما مخاوف أن تطول إجراءات تسليمه للمخفر والعودة بالتالي إلى منزليهما متأخرين:

- أولاد مساطيل بحق. كان يقول.

ويكمل:

- إنهم بالدرجة التي يجعلونك تؤمن فيها بقدراتك الخارقة، تجد نفسك، وفي مثل هذا الموقف العصيب، تسيطر عليك كوابيس الرسوم التي صنعوها لك على الجدران. مجرد هيكل عظمي فارغ، يثير الشفقة بقدر ما يبعث على الاشمئزاز.

ها هو في نفس الحاجز يبتلع مثل جراب النجار مسامير لا يقبلها حتى الخشب. من ناحية، يميل إلى تصديق أنه خارق للمألوف وعصي على اللمس. ومن ناحية أخرى ، يعتقد أنه بالفعل أصبح ملاطشة للمرضى والعصابيين في الحارة بحيث نبشوا عظامه بالفحم وفخموا ظله الطويل حد أن الأمر أشبه عليه في أكثر من موقف. لو حسب الحيز الذي يحتله الآن في مؤخرة الجيب لوجده ملائما إلى أبعد الحدود لاحتواء مفرقعة. ما هو الفرق إذًا بين عود ثقاب في يده وآخر في يد أحد الشرطيين؟ لو حاول أحدهما النظر إليه

بتمعن لرآه مثل مفرقعة من نوع" نقار الخشب" رثا ومتآكـل الحواس والأدهى من ذلك أنه سيتنبه إلى قابليته الشديدة لعدم اشتعاله على النحو الذي يرجوه لنفسه. سينتهي الأمـر فـي أسرع من لمح البصر بعد دقائق. وبما أن الوقـت متـأخر، فسيقذفان به في غرفة التوقيف حتى المساء أو ربما الغد.

ترجرج الجيب في منعطفه الأخير، وخرجت من فـم أحد الشرطيين وردة رمادية من دخان نتن الرائحة. سيجارة وبضع كلمات قليلة وبسيطة أنهت المشوار والسـلام. سـأل أحدهما ، وكان بدينًا وعلى وشك التقاعد، إن كان بحاجة إلى ماء؟، أجاب بالنفي، بهزة من رأسه بينما عيناه تجوبان ثقوب الشراع الذي فوقه بحثًا عن ملامح سقف أعلـى لتوقعاتـه حول ما يمكن أن يحدث في الداخل. صرت العجـلات فـي دورتها النهائية التي وقفت فيها بالضبط أمام البوابة الداخليـة للحجز.

وقرعت الطبول. كان بروح ملئت فجأة بالنكتة رغـم تفاقم اضطرابه، يتخيل أن طبولاً ضخمة قرعت لـه. جـاء الولد الخارج على القانون. تعجبه التسمية التي أطلقها علـى نفسه ويشعر بغبطة غريبة. إذًا، اصطفي يا أقدام، ودقي على

الأرض يا أعقاب البنادق. لكنه ما أن بلـغ بـاب المـدخل مخفورا بالجنديين حتى أحس بزوال مجده فغمغـم: أهـلاً، أهلاً، بالحشرة، كيف حافظت طوال الطريق على جنيحاتـك الرقيقة، ولم تتمزق في النفخة التي واكبت القبض عليـك؟.. بغضاريفك الهشة، لم تربحي السباق في أول محاولة، وهـا أنت تتوقين لتمثيل أبناء جنسك في فناء غير معلن، وبشروط غير ظاهرة للعيان. تدلي إذًا بلعابك الرقيق حتـى الصـباح، وحاذري من الوقوع في رهانات غير محسوبة.

شعر، وهو يفتُ لنفسه وليمتَها اليابسة المكونة من الليل والبعوض ومدخل مستطيل بباحة ملتوية تعج بالموقوفين من كل نوع، أنه عمل غلطة حياته. كيف لم يبحث عـن أولئـك الرسامين المهرة الذين أوقفوه على باب الرؤية. ليقبلهم جميعا ويحرث في أصلابهم دعـوات صـادقة بالحيـاة السـعيدة لذرياتهم. لقد رأوه على حقيقته فرسـموه كمـا رأوه. علـى حيطان المدينة، وبالفحم الطبيعي، رسموه هـيكلاً عظيمـا، ليدرك "أن أصلب ما في جسم الإنسان هو عظامـه، ورغـم ذلك لا يمكنها أن تقاوم ضغطة خفيفة من توقه إلى الخلـود. ليس من سنة العظم، أن يعطي تفسيرا أعظم مـن تفسـيره

لهشاشته في ساق إنسان يركض يريـد أن يلحـق بـالأفلاك البعيدة، ويفتتح في السديم الكوني رحلة الأبد" ليس يدري أين قرأ معنى هذا الكلام ومتى أو أين سمعه أو في أي حلـم رآه مطبوعا في رأسه؟. كلنه يفهمه الآن بشكل أفضل، إن هيكله العظمي المرسوم بأيدي أولئك الصوفيين الزهاد، أو أولئـك الشياطين السحرة، ومن لا يعرف في الواقع من هم ولا مـن أين جاءوا، ليقول له أنه، رغم تجليات البارود في خلجـات مفرقعة تنفجر في الفضاء الناعم الواسـع، ورغـم انتشـاء الصواريخ في السماء واحتراقها في الكـون الهائـل بفـرح ظاهر وكأنها تريد أن تعيش سديما في السديم، ورغم شعوره اللاذيذ بامتلاء روحه وهي تقاوم الصمت والجاذبية والغبـار، ليقول له هيكله العظمي الآن، أنه ليس إلا وحشًا صغيرا في قفص وحش كبير.

إن الجنود هؤلاء، ووكلاء الرقباء، والرقبـاء أنفسـهم الذين ذرعوا المدخل ألف مرة قبل أن يتربعوا حول صحون فول بلدي، وجبن أبيض مع خبز شامي وأطباق ضحلة مـن الطرشي، لا يعرفون عنه أي شيء. من يكون بالضبط؟. ذلك

ليس مهما عندهم بقدر ما هي مهمة ونافعة وجبة العشاء تلك. ولو صرخ بملء فمه:

- حلوا هذا اللغز. عمري في العشرين. طولي مائـة وستون سنتيمترا، ووزني ثلاثة وخمسـون كغـم، أدرس في ثانوية القرطبي، فما هو الشيء الـذي طوله ثمانية أضعاف عمره، ووزنه ثلث طوله؟

لو سألهم حل ذلك اللغز، فلن تكون قضيتهم أن يشعروا بالذنب تجاهه، ويقوموا عندئذٍ بمواساته ويشـدوا مـن أزره لخشيتهم أنه ربما أوشك على الانهيار كما يحدث في العـادة لسائر المراهقين الذين يوقفونهم بين فينة وأخرى.

لا بد أنهم، وأمام حالة مثل حالته، توقعوا حدوث أمور من قبيل التوسل، الرجاء، استمالة القلب لإطـلاق السـراح، لقاء وعد جازم بالتوبة وعدم العودة مـرة أخـرى للمكـان. ولا بد أنهم، وهم الذين تحلقوا حول وجبة العشـاء الهنيئـة، ازدردوا من قبل الكثير من المواقف المماثلة وعاشوا بعد ذلك بضمير المهنة المحض. ليس في يدنا الأمر، سيقولون لـه، كما قالوا ذلك لغيره من قبل. إنهم لا يعرفـون عنـه حتـى اسمه. فما عساه يكون الشيء الذي يحملهم على الإنصات له

والعمل على إطلاق سراحه؟. كما أنه، في المقابـل، يـرى وجوههم للمرة الأولى وبتلك الصور التي ظهرت بها أمامه. تساءل، متضورا من مغص داهمه في بطنه، عمـا إذا كـان هؤلاء الجنود يعيشون في نفس البلد؟ كيف لم ير أيا منهم من قبل، في دكان، أو في مخبز، أو في الشارع حيـث يمضـي الوقت فاتحا عينيه على آخرهما؟. ليس عنده شك في خبرته بالبلد ولا بمعرفته بأهله. لكنه هنا يكاد يجـزم أن الوضـع مختلف. بعد اطراقة خفيفة، فضل ألا يحول الملاحظة إلـى ريشة على رأسه وهو في ذلك الوضع الحرج. مـن سـيهتم للأمر؟. ثم أنه ، أحيانًا، ينهمك في عمله حد أن عينيه إما بين يديه حيث توجد مفرقعة، أو في السماء حيث يتابع صاروخًا في رحلة طويلة بلا عودة.

رغم ذلك، ليست هذه هي المشكلة. كما ليست المشكلة في المدخل المستطيل الداكن الذي يشبه بهوا غير أنه لـيس كذلك، من الباب الرئيس تبدأ حجارته القديمة يقضم بعضـها بعضا، إلى مسافة خمس حجرات متشابهة هي كل ما يطوله نظره من العمق المعتم للمبنى. حجـارة مختلفـة الأشـكال والأبعاد حجارة محدبة، حجارة نصـف منتفخـة، حجـارة

مسطحة ملساء، وأخرى ملتوية وناتئة، وكلها جنبا إلى جنب، بلون المساء الذي انسكب منذ نصف ساعة على المكان. إنها من ذلك النمط الذي يبعث على البكاء بعد لحظـات تعقـب قصيرة لماهية اقتصاره على الظهور بملامح مشوهة حزينة رغم صلابته وقوته.

كائن حجري، كان قد دخل في حالات تشنج عديـدة، قبل أن يترك نفسه في يد الإهمال فترة من الوقـت. ومـن جوفه القاني، استوى الملاذ ثانية. مسته رعشة الحداثة فـي أعماقه، فارتجف الحجر، واستأنس المدخل بضـوء هزيـل لمكتب استقبال لا يعمل ليلاً. مرة أخرى، تنفلق مـن قلبـه الحياة. ومتحللاً من ثقل التاريخ، يعود بشهية جبل لابـتلاع الناس. الممرات مضاءة، والغرف مجهزة بمستلزمات الحياة العصرية، يصبح مقرا للشرطة. في الطوابق العلوية مكاتـب الإدارة، وفي الدور الأرضـي ثكنـات الجنـود، ومكتـب الاستقبال، وغرف التوقيف، هكذا تصور المبنى العتيد مـن داخل غرفة توقيف ضيقة مليئة بمخلفـات موقـوفين أخلـي سبيلهم قبله. وفي الواقع، فإن فضوله المتفـاقم رغـم سـوء العاقبة المتوقع، ورغم شعوره بصعوبة التنفس، هـو الـذي

يقوده إلى هكذا تصورات، الجزء الذي لا يراه، يجتهـد فـي تخمين شكله وتفاصيله. يلونه بحسب الحالة التي يعيش. ثـم يحقنه بخيال مقارب لما يمكن أن يكون عليه فـي الحقيقـة حسب اعتقاده.

ثمة أمر يهمه للغاية للقيام به فـورا. تجميـع مكتـب الضابط المسئول وتحديد موقعه. أين يكون يا ترى؟. وكيف هو اتساع المكتب؟. هل ثمة نوافذ كبيرة مما يلـي شـروق الشمس أم أن موقعه في ناحية لا يصلها الضوء؟. يقلقـه أن يجد المكتب ضيقًا، معتكرا بالعتمة، وبلا نوافذ فـي سـبيل الهواء. لا يطيق الأماكن الضيقة. لا يحب الأماكن الكريهـة بظلامها الخانق وبمظهر الجنـائز فـي مسـاحاتها كغرفـة التوقيف هذه، يشعر بالاختناق فيها. تتسارع أنفاسه ويجـود بعرق يلحظه ذوو الذهن الشارد. كلامـه يزحـف متفرقًـا كالدود. لا شك، سيلحظ الضابط ذلك إذا كانت مساحة مكتبه ضيقة وشاحبة الضوء. ومن خلال النظرة بعد النظرة للباب، سيعرف الضابط أنه يستعجل الخروج وعنـدها قـد ينفجـر غاضبا من استهتاره وقلة تهذيبه. سينهض مناديا على جندي خلف الباب، وباقي الكلام سيعلقه في خطوته الأخيرة وهـو

يخرج. خذه للغرفة، كلمتان لا غير يقولهما للجندي ويطيـع الجندي الأمر فينزل وإياه للطابق الأرضي، يـدخل حافـل الغرفة ويتأخر الجندي كالمعتاد. يصر الباب الحديدي وراءه ويقفل من الخارج. يعـود الجنـدي إلـى موقعـه مرفرفًـا بانضباطه كرجل آلي. ومن خلال الدرج يرتفع وقع أقدامـه برتابة إلى أن ينقطع نهائيا في الطابق المحـدد. التصـرف الأقرب لتفكير حافل هو أنه سيبقي يديه ملتصـقتين بشـباك الباب. وجهه للمدخل، ومن مكان قريب يمرر إليـه الهـواء سعالاً حادا لجندي في نوبته الليلية.

لكن.. لماذا لا يتفاءل بالخير، ويقول أن طريقة كلامه تحسنت مع الضابط فتحدث إليه بلا تعتعة وحدثـه الضـابط بهدوء في مكتبه، وكان لحظتها منشرح الصدر رائق المزاج بعض الشيء؟ وبقدرة ما، وجد حافل نفسه يضحك ويتبسـط معه في الحديث. يحكي معه عن شئونه الخاصة كصديق عاد بعد طول غياب. يسأل حافل نفسه.

- أليسوا يقولون أنهم في خـدمتنا علـى الـدوام؟. لأعتبره صديقي فقط . أنا من سيكون في خدمته. ليطلب أي شي أقدر عليه وسوف يرى. إن سألني

عن المفرقعات وعمن يقف وراء توزيعها فلـيس هناك شخص أعرفه غير العم قائد. وأنا على ثقة، بأنه لن يجد في الخبر ما يلفت الانتباه. فالعم قائـد منذ أن عرفت اللعبة وهو يـدخل ويخـرج مـن المركز في ظرف نصف نهـار. يجلبونـه إلـى المخفر بالجيب في الصباح ويعود ظهرا بسـيارة الأجرة إلى عزبته في طرف البلد ويسـتمر فـي البيع. لقد حكى لي عن ذلك بنفسه وهو يضـحك كصانع نكتة. بل قد يكون في ذلك سببا لإطـلاق سراحي. فقد يراني الأشول ويفكـر عنـدها فـي التوسط لإخلاء سبيلي.

وشعر بارتياح جزئي.، غير أنه ما زال يشعر، وهذي المشكلة، بندم حقيقي إذا لم يفكر جيدا في مغزى الرسوم من قبل. ها هو يدفع ثمن غبائه على نحو وافٍ وعاجـل. وفـي الحقيقية، لا بد أن يقر بأنه طالما عانى من قصور واضح في التفاعل بشكل جدي في حصة الرسم. مـادة ثقيلـة كهـواء الورش الصناعية. مزعجة بالطريقة التي تنفرط فيها علبـة ألوان دفعة واحدة على البلاط أمام المدير. ولطالما تسـاءل

عن الفائدة المرجوة من وجود مدرس للحصة الفنية مادام أن اختبار المادة ينتهي بكلمة ناجح آخر السنة كما تنتهي الحصة بالذهاب إلى الحمامات لتنظيف الأيدي من لطخات الألـوان، بيد أنه لا بد من توضيح الفرق. فمادة الرسم فـي الفصـل، ليس من ضمن مواضيعها المقررة رسم هيكله العظمي على الحيطان. والفحم ليس مثـل قلـم التلـوين الأسـود الـذي لا يستعمل إلا وقت الضرورة على الكراس.

المغزى واضح الآن. يرسم الهيكل العظمـي بشـكل مختصر في الظاهر. خط واحد للعمود الفقري. خطان عـن اليمين وعن الشمال لتثبيت اليدين. دائرة في الأعلـى، فـي إشارة إلى الجمجمة. عينان مفتوحتان، أنف بأرنبـة بـارزة، وفم. لا وجود للقدمين في اللعبة. هذا هو كل شـيء بشـكل عام. عندما يبحث التفاصـيل، يفتـرض أن يـربط الرسـم بموضوعه الخاص به وفقًا لطبيعة البيئة والظـرف الـذي شكله والزمن والمكان أيضا. غير ذلك، هناك فن الرسم بتلك الطريقة الساحرة التي تشي بخرزات الظهر من بعـد. تكـاد تحسها بالنظر تهتز في العمود الفقري، كما لو كانت تهتز في بخار ماء يتصاعد على مهل. ثم ذلـك الانفجـار الشـفاف

لشجرة من العروق في الهيكل، إلى الحد الذي يبلغ من التأثير ألا تكاد تفرق بين الخيال فيه والحقيقة. ثم إذا ما أنعم المـرء النظر في اليدين، هناك الطيف الذي يشبه انعكـاس هـذيان مبخرة طفيف على مرآة. رقيق وواه، غير أنه مـن القـوة بحيث لا يدع للرائي تصورا آخر سوى تصور أنـه اللحـم والعروق والعصب. وهكذا في كل عضو من الهيكل بغـض النظر عن الموقع الذي يوجد فيه. سطحي وعميق. ظـاهر وباطن. أما عندما يقرأ الرسم لاستظهار إشاراته الكامنة فيه، فيميل حافل إلى أن التفاصيل في الصورة العامـة، تحمـل ملامح أشياء لها علاقة بالمستقبل. إشارات طفيفة عن شـيء ما سيقع. ليس متأكدا مما يقول، بل هو مجرد إحسـاس. إن محض وقوف رسمه على جدار، وفي الهواء الطلق، ليـدل على رمزٍ أو على علامة ذات دلالة هامة لا ريب، ويتساءل حافل متشوقًا إلى القبض على جواب قـاطع، عـن معنـى انتشاره مرسوما بالفحم على حيطان أناس في البلد لهم قيمتهم الاجتماعية. حائط ضابط الشرطة، حائط العمدة. حائط نائب المحافظ كما اكتشف قبل أيام أثناء جولة بالدراجة النارية في وسط المدينة ولا بد أن هناك حيطان أخرى لم يصـل إليهـا

بعد. كان يريد أن يعرف لماذا صعقت وجهه تلك الابتسـامة البلهاء على حائط الضابط، فانشغل منذ وقت بطوفان الدموع على حائط العمدة.

يخمن أن تلك الرسوم لديها ما تقوله لكونها رسمت في العراء المفتوح، حيث لا حواجز ولا إطارات تقيد الإشـارة أو تشتتها . في مقابل ما هو فيه هـذه اللحظـة، يشـعر أن الرسمة التي على جدار الضابط، كانت تريد أن تقول شـيئًا ما. ربما كانت تشير إلى ضـرورة اتخـاذ الحـذر وأخـذ احتياطاته اللازمة قبل مجيء الشرطة. الضحكة على الوجه ربما كانت تدل على أن القرار بإحضاره إلـى المخفـر قـد صدر. الدموع على حائط العمدة، قد تعني شيئًا آخـر. مـن يدري؟. لكنها في نفس الوقت، قد تشير إلى أن العمدة علـى علم مسبق بالأمر وأن ثمة عراقيل معينة تحول دون التوسط لإخلاء سبيله، لو كان فهم هذه الأشياء في السابق، لربما كان وضعه أفضل. ولكان لديه من الوقت ما يكفي للخروج مـن مرمى النيران بسلام. ولكان بحث عـن أولئـك الرسـامين ليشكرهم. ولكان سألهم أن يتعلم منهم فن الرسم على حقيقته

وليس كما جربه في المدرسة. ليس تعلم الرسم فحسب، وإنما تعلم فن قراءة الصور والرسوم بالمفهوم الذي يطبقونه.

وقرع نفسه بحنق:

- يا للمرارة! ليس للغباء حصص في المدارس، وإلا لكنت أشهر من نار على علم. ولو أنني أنصـت جيدا لحدسي الفطري وحده، لكنت تنبهت إلـى أن ثمة حركة في الخفاء كانت تنتظر اللحظة المناسبة لتقوم بخطوتها الضرورية.

وكان رأى قبل أيام دورية من سيارة جيـب واحـدة بالحي تتجول في بعض الشوارع جيئة وذهابا ثم تختفي، وفي اليوم التالي تظهر مرة ثانية وتسلك شوارع أخـر وتختفـي أيضا. وفي زيارته الأخيرة للعم قائد، سأله سؤالاً لـم يفهـم مغزاه إلا الآن. لقد سأله عما إذا كان يعرف في أي سـورة من سور القرآن الكريم قوله تعالى: وجاء رجلٌ مِن أَقْصى الْمدِينَةِ يسعى قَالَ يا موسى إِن الْملأَ يأْتَمِرون بِك ؟ ولما كان وقتها بحاجة إلى أن يراجع المصحف الكريم ليجيبـه علـى سؤاله، طلب منه أن يتوضأ أولاً في مكـان وضـوئه، ثـم يستعير مصحفه الكبير الموضوع في مصـلاه. لـم يوافـق

بالطبع. فهو كما أخبره من قبل، جاب تلك النسخة من القرآن من بلاده كإرث مقدس أورثه إياه أبوه عن جده ومـن غيـر الممكن أن يسمح لأحد بمسه أو تصفحه. بعد تلـك الزيـارة مباشرة، رأى حافل تلك الرسمة بذلك الشـكل علـى جـدار ضابط الشرطة.

(٣)

الغرفة، كيس ضيق من الظـلام والبعـوض. هـواء التنفس ، يتخيل حافل أنه نفس الهواء الذي يعشق السجون في العادة، ويتمحك بالمساجين في العنابر كل يوم. الأوكسـجين نفسه، ورائحة الأجساد، والأمونيا، والمواد المتطـايرة مـن طلاء الجدران، ورائحة التبغ، وعفونة المياه في الحمامـات. يضيف حافل إلى هذه التركيبة، ما يخص هذه الغرفة بالذات. رائحة زيت جوز الهند فـي شـعر رأس أحـدهم. وبخـاخ لحساسية الصدر يستعمله شخص ثالث بـين وقـت وآخـر. صاحب الرأس المدلل قال أن اسمه اختر مسعود وكان ذاهبا في زيارة لصديق دعاه لقضاء السهرة عنده. أمـا الشـخص الثالث فهو مصري يعمل في معمل جبس للديكور. ثم جـاء شخص رابع بعد صلاة المغرب طويل للغاية، ويلبس ثوبـا أبيض وشماغًا يلفه حول رقبته. لم يتكلم بكلمة واحدة بعد أن ألقى التحية، بل ثبت عينيه على الجدار الخلفي المعتم بعض الشيء وغاب في صمت طويل.

وعلى حصير متسخ، هبط سيد البعوض من عليائـه، ونادى أن تلحق به كل بعوضة تستطيع الطيران والنيل مـن

العدو.. ومن الثقوب.. من على أسطح الجدران، ومن داخل دورة المياه في آخر الممر، توافدت الحشـود الجائعـة دون تأخير. فالغنيمة. بسيقانها وأيديها ومقلها الناعمة تتكاثر فـي الظلام. ووهب سيد البعوض أقدام الموقوفين الجدد للبعوض البطيء المتقدم في العمر ليتسنى له الظفر بنصيبه من الـدم والهرب في الوقت المناسب. أمـا البعوضـات اليافعـات، المدربات على اجتياح المناطق الخطـرة، فكانـت أيـديهم ورقابهم مجال صيدها المفضـل. وكـانوا يسـمعون أزيـز الخراطيم وهي تتمدد وتثقب الجلد بإبر حادة ومجوفة، وكانوا يحسون بجزء من دمائهم تصـعد إلـى جـوف البعـوض، فيغشاهم الخوف من السقوط على الأرض أمواتًا. ويحدث أن يسمع أحدهم مجموعة من البعوض تتهارش فيما بينها للحـد من فوضى النهب المتبـادل. وحـدث أن ثبتـت بعوضـة خرطومها تحت أذن حافل وشرعت في سـحب الـدم، فلـم تستطع الطيران بعد ذلك وبقيت فترة من الوقت وهي تطـن في المكان دون جدوى.

لم يتحدثوا إلا قليلاً. متفرقين في الغرفة كقبور أثرية، اكتفى كل منهم بعالمة وحربه الضـروس ضـد البعـوض.

وألحق بهم الصمت ما تلحقه الرطوبة بالمفرقعات. لم يتقدموا في سبيل التعارف المتبادل أبعد من كلمات قليلـة، باسـتثناء الرجل الطويل الذي بقى على حاله لا يتكلم ولا يحول عينيه عن الجدار. ظلوا، كل في معتكفه النفسي، يسـحبون إلـيهم الكمية المطلوبة من الهواء، وينتظرون أن يفتح باب الفـرج. حافل امتنع عن الكلام لعلمه أن الآذان في غـرف التوقيـف بالذات مثل الهواء تسير في كل اتجـاه ولا تـرى بـالعين العادية. ونظر حافل إلى الرجل الطويل الصـامت، وركـز نظره على رأسه وحينئذٍ خطر على باله أن أذنيه لا بـد أن تعملان بشكل جيد ما دام أنه يصمت أيضا بشكل جيد ودون أن يحرك شفتيه حرك كلماته قائلاً: هنا تقال الكلمـة وفـي مكان ما تصير مفرقعة في نفس الوقـت. وسـادت المكـان أجواء فئران تحتضر. وتقدم السيد اختر مسعود خطوة إلـى الأمام لإعلان انفصاله النهائي عن المجموعة، إذ تلفع بردائه العريض واضطجع طلبا للنوم. وهيج مشاعر حافـل نـواح جندب غارق في الواحدة يأتي من أحشاء الليل خارج النافذة.

ومن بعيد، لا يدري من أين، ربما من تحت النافـذة، أو من آخر الأرض، جاء الصوت. كان مسموعا إلى درجـة

أنه أصلح من هيئته وتوجه إلى الباب يريد الخـروج. كـان صافيا فوق ما يتصور، حد أن البعوض اشتعل فـي رقبتـه واحترق. والتفت كعاشق جهة الصوت:

- بل من تحت النافذة يأتي.

أكد لنفسه:

- ماذا أفعل؟. أين حـذائي لأحضـنها؟ هـل هـم الرسامون أتوا لنجدتي؟

الصوت يأتي من تحت النافذة بالضبط. صوت مفرقعة لا ريب. وأكد صحة إحساسه بأنه ناجٍ. وتذكر، وليس يدري كيف حدث ذلك، ما قاله عنه أصحابه من أنه إنسـان غيـر عادي. لكنه لم يقف ليسأل نفسه ما إذا كان ذلـك صـحيحا أم مجرد ترهات مساطيل؟. لا يوجد وقت كـافٍ للسـؤال. وهمس في فرح:

- مسلط إذًا جاء. نعم، هذا هو مسلط. إنهـا نفـس طريقته في تفتيت المفرقعة إلى أشلاء. يرمي بهـا في الهواء في اللحظة التي بها تتفجر. لم يرض أن يتركني في التوقيف أكثر من ساعتين، بـل جـاء يبشرني بخروجي الوشيك. لا بد أنه كان خلال.

الساعتين الماضيتين يسعى لإقناع عمه العقاري الكبير بالتوسط لدى الضابط في بيته لإخلاء سبيلي بكفالة.

حدث ذلك منذ ساعة. نعم. وكانت الحركة في المدخل ومكاتب المناوبين تشير إلى أن ساعة قدوم الضابط مرت منذ وقت. لكنه تأخر كثيرا، كما لاحظ ذلك صاف الضابط المناوب، السعال الحاد الذي عرف حافل أنه كان يأتي من خفير على باب المدخل، حل محله صمت رسمي وأجواء احتفالية مرتبة. طلبوا منهم الوقوف في الغرفة منذ ساعة ووجوههم جهة الممر ليتصفحها الضابط عند تفقده المسائي المعتاد للموقوفين. عرض ضروري لإظهار الوجوه المحبوسة ضعيفة ومبددة أمام الضابط ولتقول له أيها المسئول العظيم تأخرت عن أداء واجبك فينا. كان حافل الأول في مجموعته، إذ وضع وجهه بالضبط على سياج فتحة الباب الصغيرة، ليراه الضابط بوضوح. لكنه لما تعب من الضغط على قدميه، سلم نقطة المراقبة لزميله المصري وسب الضابط.

- الآن، ماذا أفعل بك يا مسلط؟. أنت جدري كالشاي لطيف ورحيم للغاية. جرب في عز الفزعة

والطيبة. في مـادة الكيميـاء سـوف أسـاعدك بلا حدود. أسهر وإياك علـى مراجعـة أصـعب المواضيع وسوف تنجح يا لئيم.

نادى حافل صديقه في سره، وقد امتلأ قلبه بدم جديـد متدفق لم يحس به من قبل.

وجاء صوت مسلط من الخارج.

- ننتظرك في حوش المساكين.

(٤)

رأته داخلاً، فناديته. أدارت عجلات كرسيها المتحـرك ناحية الصالة نصف المضاءة. بدت له فـي آخـر الصـالة أصغر جسما من المعتاد. نبع صوتها مـن أوتـار مطهـوة بالحزن.

- تعال يا حافل أريدك هنا.

وأشارت إلى فراش في الصالة بالقرب منهـا. بقـى واقفًا في مكانه عند الباب. في ذهنه انفـتح دفتـره الملـيء بالأخطاء والدوائر الحمر. في يدها تحفظ العلامة، وبأصابعها تمحو الدائرة الحمراء الموصدة على خطأ سابق. يتم العفـو بلا ضجيج من قبلها، أما هو فكان يعلم أنه سوف يعود ثانية بالجلد المرقع نفسه للولد المذنب، وسوف تنغلق دائرة جديدة على خطأ جديد. ورغم ذلك، لا تتذمر.

دفعت عجلات الكرسي شهورا طوالاً في أثر أبيه، ثم شهورا طوالاً في أثره، ولما تعبت يداها من الدفع، اكتسـى قلبها لحما جديدا يشبه الدموع فكفت عن الملاحقـة. لزمـت بيتها الصغير برهبانية فتيلة في سراج. غير أن عينيهـا مـا برحتا رغم مشاكل النظر تتفقدان الباب كل يوم.

- تعال يا حافل يا ولدي.

لم يرد لها أن تتعب في طرح الأسئلة. كان يعرف أنها للغاية قلقة عليه. تأخر، فترعتْ سلسلة الباب ليبقى مفتوحـا وتبقى هي بانتظاره على كرسيها أمام غرفتها حتـى يعـود. كانت ترتدي "مذيل" عدنيا فاتح اللون، يراه للمـرة الأولـى. وعلى قدميها يجاهد جوربان صوفيان بنيا اللون، في البقـاء فوق الكعبين حتى وقت الوضوء القادم. كانت تنتظره.

قبل يديها ورأسها وجثا بجوارها وهو يفكـر فـي أن يحكي لها ما حدث على النحو التالي:

- مسلط صديقي وقع في مشكلة سوف أختصرها لك لئلا تتعبي من سماع التفاصـيل. ذهـب لعيـادة الأسنان لحشو ضرسه لكن الطبيب تأخر. انتظرناه حتى جاء، وعندما كشف عليـه نصـحه بخلـع ضرسه لأنه متعفن من الداخل كما يقـول. لكـن مسلط لم يوافق وخرج من عنـده لعيـادة ثانيـة، ونفس الشيء قال له الطبيب لا بد من خلعه ولنفس السبب. رفض أيضا، فخرجنا إلى السيارة وهنـاك وجد سيارة المرور عندها واقفـة. طلبـوا منـه

الرخصة والاستمارة أولاً وقبل كل شيء.. سألهم لماذا؟، فتضايقوا من سؤاله، وأمـروه ألا يضـيع وقتهم وأن يعجل بإعطائهم الرخصة والاسـتمارة. لما أخذوها منه أمروه أن يلحق بهـم إلـى إدارة المرور ثم قادوا سيارتهم بسرعة منسـحبين مـن الموقع. إلى هناك لحقناهم، ووجدنا أن السبب هو وقوف السيارة أمام العيادة الأولـى فـي موقـف خاطئ. يحاف مساط أنهم ما صدقوا، لكنـه سـدد قيمة حشو ضرسه لحساب القسيمة فـي النهايـة ورجع بضرسه كما هو إلى البيت، لا هـو الـذي قلعه ولا هو الذي سلم من المخالفة.

لكن ماء باردا في سطل، سيشعر أنه ينسـكب علـى رأسه، تقديرا لجهوده في إخفاء الحقيقية. لا يجادل في أنه ما من حقيقة لتبرير هذه الحيلة في التضليل، أوضح من حقيقـة أنه بالفعل عاد إلى الكذب مرة ثانية، عليه إذًا، أن يحك رأسه كالمعتاد. أن يفرقع أصابعه أمامها، ويتهرب من النظر إلـى عينيها مباشرة بكلمات قصيرة، يجب عليه أن ينهار كما فـي المرات السابقة، ويعترف بما حدث بالفعـل. مسـاط مـن،

ومرور ماذا، بالضبط؟. أليس يجلس متربعـا علـى فـراش الصالة نفسه الذي لا يمنعه من التهامه ليخفيه عـن أنظـاره ويرتاح منه، إلا لأنه يقدم له هذا الجميل الفادح؟. الاعتراف فوقه، بأنه يكذب؟.

لكن، كانت ستجن إذًا، وتصيبها رعدة العاجز عن فعل شيء. هل سيخبرها أنه كان في الحبس؟. سيكون أسهل لهـا أن تسقط من الكرسي على رأسها، ولا تسـمع أنـه دخلـه أو مر بالقرب من قضبانه، الحبس عندها للنـاس الرديئـة. الحشاشون والسكارى فاقدو الإيمان. أو بكلمة واحدة، النـاس "الصايعة" الذين لا أهل لهم ولا مأوى. أما هو فلـيس فـي نظرها كذلك ولن يكون . له بيت، كما تقول له دائما، ولـه أهل. له أب وأم ما زالا على قيد الحياة، ومـا زالا قـادرين على الاهتمام به. كلا، لـيس الحـبس بالحكايـة المناسـبة للموقف، هو ليس بحشاش، ولا سكير فاقد الإيمان ليدخله. إنه مجرد لاعب مفرقعات لا غير. لاعـب مفرقعـات، يـدخل الحارة كما يدخل بيته، ويختار منهـا البـراح والمسـاحات الفارغة، تقول له لا تصـل إلـي أخبـار مزعجـة مثـل صواريخك، ويعترف بأنه لم ينجح في منع ذلك، لكنه، فـي

عينها رغم كل شيء، ليس شريرا. لا يستحق الحبس على الإطلاق. إذًا، الحكاية عن مسلط لا تؤذي. نهايتها طريفة ويمكن أن تهدئ من توترها وحالة القلق التي لبستها.

وسرد لها القصة، متصنعا المرح رغم مبالغاته في تصوير عذابات مسلط وتآكل ضرسه. لم تقل شيئًا لما حكى لها، بكذبة إضافية صغيرة، أنه رأى أخت مسلط "صيته" في المنزل تعمل الشاي لهما، ولم تعلق بكلمة، بل سألته عن أبيه. وهل رآه؟. ومتى؟. وهل أخبره عن أنبوبة الغاز التي رفضت أن تعمل فجأة؟ ثم أخرجت من جيبها علبة علاج السكر "دونيل"، وكان قد نفد معظم حبوبها، فابتلعت حبة. قالت له أنها ليست مرتاحة ولن تكون مرتاحة ما دام أنه في الخارج طوال الوقت وليس بالقرب منها. باقي الأشياء بسيطة. قالت ذلك سكتت وعلق حافل على كلامها في سره متسائلاً: باقي الأشياء بسيطة؟ وأجاب: ربما. وكان سيوافقها الرأي فيما قالت إلا أن يكون غياب أبيه من ضمن تلك الأشياء البسيطة. ليست تستطيع إنكار أن رجلها الوحيد في حياتها، غاب في عباءة امرأة أخرى شابة وجميلة وتدب على

قدميها، وبقيت هي على كرسي متحرك في بيت فارغ. لـن يكون أبوه من أشيائها البسيطة أبدا رغم ما فعل بها.

بعدما رجلاها كفتا عن الحركة، وصار عبئًـا عليهـا حمل جذعها السفلي خارج الكرسي المتحرك على إثر مرض غريب ومحير، حلق هو شمالاً وحط في بادية الشـام. بعـد خمسين ليلة، عاد بزينب، فتاة طويلة يتعثر وجهها في لـبس "البرقع" الذي فرضه عليها حال عودته. عيناهـا الزرقـاوان أضافتا إلى الألوان المعروفة للعيـون فـي الحـي، اللـون الأزرق، وهو ما ظنه بعض النساء تركيبة شامية لها علاقـة بالسحر والسيطرة على الأسرار. فاللون الملحي للعيون، وهو اللون العسلي، يكاد يكون اللون السائد بين النساء الذي تشتهر عنه ملاءمته للامبالاة والبرودة العاطفية. أما اللون الأسـود فللكحل والمفاخرة وإشعال الحسـرة فـي قلـوب بعضـهن البعض. اللون البني هو لون الشـبق الجنسـي فـي سـن العشرين، ثم يخف شيئًا فشيئًا إلى أن يتحـول فـي بعـض الأحيان إلى تراخوما في سن اليأس، وعلامة للموت في عمر الستين وما فوق. وبسبب عيني زينـب الزرقـاوين، ولـون بشرتها الأبيض أطلقوا عليها لقب "النصرانية" حتى عرفت به

وابتلع اسمها في الحي والأحياء المجاورة. ومنـذ مجيئهـا، تحولت العلاقة بينها وبين ضرتها المقعدة إلى ما يشبه العلاقة بين عمودين متجاورين يحملان سقف بيـت واحـد لكنهمـا لا يلتقيان أبدا، ولو التقيا لسقط البيت على من فيـه. بهـذه الطريقة في التعايش، انفصمت عروة الباب الأول، وتحولت الحياة بداخله إلى صرير مكتوم لعجلات كرسي تحمل ثقـلاً لا فكاك منه.

تناولت خبزا أسمر مع الزبادي، وشربت كوبـا مـن الماء. في الخارج، شهر الغبار أمواسه وراح يخـدش بهـا المصابيح والوجوه العابرة، ولعبت الرياح بشعر القطط فوق الأسوار، وقرعت الأبواب المتداعية فـي البيـوت الطينيـة المهجورة. ومن خلال المنور، دخلت إلـى نافـذة الصـالة فحركت الفراش وارتطمت بظهر حافل الذي كان قد أخذ من يد أمه الكوب وعزم على وضعه في مكانه بـالقرب، مـن الثلاجة. لحظتها، اشرأب في قلبه مبرد قلق وحزن، ثمة يـد ثقيلة على الباب تدقه بإلحاح شديد. لما فتحه، وجد أباه يقـف على العتبة الصغيرة بملابس الراحة. قرأ فيها فـي وجهـه بوادر أزمة جديدة. وأيقن أن مطرقة الخصام دقت سـاعتها

لتعمل اللازم بين أفراد العائلة كالمعتاد. أبوه مغضـب ممـا وقع له في الشرطة. لا شك في ذلك. لا بد أنه علم بـالأمر متأخرا كعادته، ولذلك جاء ليوبخه على ما حدث. ماذا يفعل ليتحاشى رؤية أمه وهي تنتحب؟. وقرر أن الحل المناسـب هو أن يخرج من البيت. لكن أباه. الذي حمل في قلبه غضبه العارم مما حدث، ما كان ليسمح له بالخروج قبل أن يفهم منه الأمر. عندها تراجع حافل إلى الصالة وقد بدا عليه التـوتر. كان في نيته أن يستدرجه إلى داخل البيت، ليمنحـه فرصـة الخروج من الباب في الوقت المناسب

في تلك الأثناء، كانت أمه تراقـب الوضـع بصـمت مشوب بتوجس وريبة. ولم يمهلها الرجـل لتبديـد قلقهـا، وكـأنه أراد أن يؤكد حضوره بتأكيد أن كل شيء في البيت لا يصلح أن يبدد المرء قلقه من أجله. إذا سرعان ما لامهـا على مكوثها يومين إلى جوار بوتاجاز لا تعمل أنبوبة الغـاز التي تخدمه، ولمح إلى أن الباب غير مقفل بإحكام، وكان من الممكن أن يدفعه بقدمه، لو أراد، ليفتحه علـى مصـراعيه. كانت لهجته معبأة بكلمات رجل واثق من أن كل شيء أمامه، كان على ما يرام في السابق. لكن إهمالاً وقع في غيابة، أدى

إلى نتيجة لم يكن يتصور أنها ستحدث في بيته. ثم اسـتدار إلى حافل ليسأله لماذا كان هناك في السجن بمبنى الشرطة؟. غرفة التوقيف، بالنسبة إلى حافل، غير السجن. هكذا يفهـم الأمر. الحبس بالنسبة إلى أمه مكان سيئ للغايـة لا يدخلـه إلا أسوأ الناس. الحبس وليس غرفة التوقيف. هل كانت أمـه ستفهم الفرق على هذه الشاكلة؟. وخطر له: لو شرح لهـا أن غرفة التوقيف لا يدخلها المجرمون الكبار في الأصل بل هي لرجال أقل خطرا في البلد وأضعف تأثيرا، كمن يتورط فـي عراك في الشارع، أو في حادثة نشل عابرة، لو شرح لهـا ذلك، لربما هان عليها وقع الخبر. إنهـا مرحلـة إجرائيـة خاضعة لنوع الجناية ومجريات التحقيق مع أنـاس عـاديين وبسيطين يسهل وقوعهم بسرعة في أيدي الشـرطة. وفـي الإجمال، لا يتعدى اعتقال الشخص فيها أياما معدودة.

وهو احتجز فيها، ليس لأنه مجرم بل لأن بلاغًا قدمه إلى الشرطة بعض النافذين في الحي يشكون فيه منه كمصدر إزعاج لا غير. سيضطر إلى شرح ذلك لأمـه فـي وقـت لاحق، إذ أن هذا الوقت غير مناسب على الإطـلاق. فـأبوه يريد منه إجابة محددة، وهي الإجابة التي حالما تسمعها ستجد

نفسها أمام لبس حقيقي لا يمكنها فهمه. هل كان في الحـبس أم كان في مكان آخر له اسم مختلف؟. ما يعنـي أن حكايـة مسلط سيتساقط عنها ريشها الصناعي فـي الحـال وتبـدو لناظريها فجة ومتهالكة. وذلك أسوأ ما في الموضوع، حيـث أنها لن تسامحه على كذبة لم يعترف لها أنها كذبة في وقتها، أما في نظر أبيه فالأمر سواء. لا فرق عنـده بـين غرفـة التوقيف والسجن العمومي. لا فـرق عنـده بـين موقـوف لمخالفة مرورية ومسجون بجريمة قتل أو بجريمة تهريـب مخدرات. إنه من ذلك النوع من الرجال الذين يرون أن من العار على المرء أن يدخل السجن، وأن من المعيب للشخص السوي أن يتم استدعاؤه إلى مقر للشرطة للتحقيق معه في أي شأن من شئون الحياة. وبالنسبة له، فقد حدث العـار ووقـع الأمر المعيب. ابنه يدخل السجن. والأكثر إيلاما هو أنه لـم يعرف بالأمر إلا من آخرين ليست تربطهم به علاقة وثيقة. ثم أن يعمل على إخلاء سبيله بدون علمه، ويطلق سراحه في غيابه، فذلك مما لا يمكن احتماله.

وقعت عينا حافل على الباب، فرأى السلسلة النحاسـية يتدلى مزلاجها الصغير في صمت. عندها فقط، علم أن الباب

ليس في وسعه أن ينغلق بمقبض اليد العادي. فاللسان الداخلي لمزلاج الباب رغم ما يبدو عليه من حالة جيدة، لا يصل إلى التجويف الخاص به في عضادة الباب الخشبية المقابلة. ذلك يشير إلى أن السلسلة إنما وضعت لإغـلاق البـاب بشـكل أساس، وليس لتعزيز وضعه وهو في حالة إغلاق محققـة. أفزعه مرأى الفراغ بين المزلاج الداخلي للباب والتجويـف. وتساءل منذ متى والباب على هذا الحال؟. وفيما يشبه حالـة من التهكم اجتاحته، لاحظ إن الصالة ليست الوحيـدة التـي تستقبل الباب، بل أيضا غرفة أمه إذا ما انحرف الداخل قليلاً إلى اليمين متخللاً بقعة من الظلام تفصل بين الغرفة والباب، ولا يصل إليها ضوء المطبخ المتروك مشتعلاً طوال الليـل. أما غرفته البعيدة عن الصالة والباب معا، فلا ترى من مكانه الذي وقف فيه.

كانت الرياح في الخارج، ما تـزال تلـتهم الطرقـات والأرصفة. كانت تحقن الجو بذرات هائلة من الغبار تجـيء من صحارى على التخوم. بسببها تحولت أضواء المصـابيح إلى اللون الأصفر الباهت، وعلى الأرجح، شقت لها أخاديـد قصيرة في الظلام تمارس فيه تأرجحها الصامت منذ وقـت.

وفي الشارع المجاور، وهب كرتون فارغ جوفـه للريـاح، فوهبته الشارع كله.

أعاد الأب سؤاله في توتر ظاهر، بينما كان يفحـص التوصيلة التي تربط البوتاجاز بأنبوبة الغاز المركونة بالقرب منه. أخبره حافل بالسبب موضحا أن ثمة اشتباه حـدث فـي الأمر، حيث لم يكن المقصود توقيفه بل تحذيره من اللعـب بالمفرقعات في المنطقة المكتظة بالسكان. لكن بما أن الضابط لم يصل إلا متأخرا، فقد جعلوه ينتظر مع آخرين في الداخل ريثما يأتي، ثم أخرج حافل ورقة مطبوعة بحروف واضحة، قال أن المناوب قدمها له، تبين ضـوابط اسـتيراد الألعـاب النارية واستخدامها. غير أن كلام حافل، كان بمثابة أن تعانق النار مزهرية من البارود، إذ سرعان ما انفجر غضب أبيـه بصورة عنيفة على شكل كلمات مبعثرة رغـم أن بسـاطتها تدفع معانيها في اتجاه واحد، هو الاتجاه الـذي يقـف عنـد نهايته حافل. قال أنه طالما ردد بينه وبين نفسه أنه لا ينفـع في شيء سوى الركض في الشوارع طوال اليوم وراء تلـك الألعاب التافهة. وقال أنه يئس منه بعد هذه الحادثـة ولـذلك فإنه لا يريد أن يراه من الآن فصاعدا، لئلا يفقـد أعصـابه

ويلحق به ضررا كبيرا في جسمه. ثم وهي تـدفع كرسـيها بينهما، ألقت الأم بصوتها في معمعة الموقف، معترضة على الأسلوب الذي يقدمه زوجها لحل مشاكل العائلة. ذكرت أنها لا ترضى أن يغادر حافل البيت ولو اضطرت إلى النوم في الشارع هذا المساء.

فيما هي تتكلم، كان يصر الكرسي تحتها مرة بعد مرة، وكأنها تريد أن ترفق مع الكلام مظهر جسمها القلق الذي لم يحتمل الخصام في بيتها وبين زوجها وابنهما الوحيد، فـراح يتململ الجسم العاجز فوق الكرسي فحسـب، مائـة وسـتة وسبعون سنتيمترا، وخمسة وسبعون كيلو غراما، من اللحـم والعظم المتكوم بعضه فوق بعض منذ وقـت، اسـتفاق الآن وجاهر في خرق العجز الذي يعانيه، لكن في النهايـة، لـم تستجب شبكة الجهاز العصبي للنداء. ثمة فجوة كبيرة بـين الكتلة ونخوة العصب تبتلع كل استغاثة تجيء. ومثلما هـي الآن الفجوة كبيرة بين الأب وابنه، خيل إليها أن المحصـلة النهائية لقدراتها على إشراك جسمها في انفعالاتها النفسية، لن تكون أبعد من حكة طفيفة بقدمها على المسند المعدني الـذي يسند أخمصها. لن تكون أعلى من مقبض باب الثلاجة فـي

المطبخ. ولئن كانت تمد يدها لتناول كوب الماء المعلق في دولاب أوانيها، فلن تكون القدرة في تحرير جسمها من رقاده الطويل، بالقدر الذي تستطيع أن تملأ به الكوب بالماء. وتمتمت: يا رب.

وفي المساحة الضيقة التي تفصل بين الأب وابنه، أجهشت بالبكاء ورقّشت روحها آلام الفقد والعجز عن فعل أقل القليل. رغم ذلك، لم يخنس غضب الأب بل وجه لها الاتهام بتدمير رشد الولد بسبب تدليلها إياه منذ الصغر وتركه على راحته في كل وقت. وخصف الغضب وجهه فجعله في لون الزعفران الغامق، وتفاهة صفيح من النحاس. لم يعد يدري ما يقول من فرط استخدامه الكثيف لعضلات لسانه في البقبقة، والصفير، وكز الأسنان على كلمة كان يريد أن تكون كلمة أخرى، والخوار من طرف الحلق بقصد النحنحة وترطيب الحنجرة، كان محض قصبة بشرية تخرج من جوفها كرة من الكلام الوضيع والسافل. الزوجة في نظره، كرتون من الحاجات الزائدة، غلطة حياته الأسوأ، ناكرة للجميل، والولد في نظره، عاق، متسكع، مشروع نزيل سجون، ومن يدري، فلعله أصبح متعاطيا للمخدرات، وكان

يتكلم كما لو أنه أراد نطق أكبر قدر من الكلام في وقت أقل. كأنه بذلك الفعل كان يسير في إثر وصفة علاجية لاختبـار استجابة الوعي لبعض القدرات الباطنة وهو في حالة انفلات لغوي قريب من الهذيان.

كبرت أثافي القدر على النار فالتهمتها، وطاح القـدر من عليائه في فمها الأحمر الوهاج. ما كان يفترض أن يكون عشاء هادئًا على فراش من القطن في صالة، صار مطرقـة تسحق الرءوس على فراش من القطن في صالة، الآن تأكـد لحافل أن أباه بفعله هذا، لو كان صاروخًا، لكان فـي هـذه اللحظة عند النقطة التي يصبح فيها أشلاء. بخبرته في إطلاق الصواريخ، قدر أن قوة الدفع عند أبيه كانـت مـن المتانـة بحيث لا يمكن المراهنة على فشل التجربة. لقد جاء لـيعلن لهما أن الحياة زرقاء العينـين واسـمها زينـب مـن الآن فصاعدا. هو وأمه ليس يمكنهما بعد الآن طي سجل العائلـة تحت اسم الأب وخصوصا أمه التي وصـفها بالحضـرمية التافهة. ذلك يعني أنه كان ينتظر أن يشعل أحـدهما عـود الثقاب المناسب ليرى بعينيه كيف تلتهم الشعلة اسم الأم تحت بند زوجة لتصبح في قيد الأحوال المدنية في حكم مفرقعـة

كانت موجودة واحترقت. أمه حضرمية تافهة، ذلك يعني أنها طالق. وهو نزيل سجون، ذلك يعني أن عليه ألا يعول على أحد تحت بند أب على الإطلاق. فماذا بقي في الجلباب من مفاجآت؟

كانت يده في جيبه، عندما عبثت أصابعه بمفرقعه عرف من حجمها أنها من نوع"k٢٠١" الذي يشتعل بمجرد حك طرفه الحساس بعلبة كبريت. عندها فكر فيما قال عنه أتربه، بأنه إنسان غير عادي. إن مجرد وقوع أصابعه في الجيب الذي تختبئ فيه هذه المفرقعة، وفي نفس اللحظات التي يعيش فيها أحد أغرب أفكاره عن أبيه، ليدل على أنه حتى في الأوقات الحرجة ثمة أمور غريبة وغير عادية تحدث له. وإلا ما معنى أن يشهد هذا التوافق المدهش بين حالة أبيه ودلالة المفرقعة المختبئة مصادفة في جيبه دون أن يخطط لذلك أو يعلمه؟. كلاهما ، أبوه ، وهذه المفرقعة، يحمل طرفًا حساسا للغاية ما أن يحتك بالسطح المناسب حتى يشتعل، كلاهما يحمل اللون الأصفر إذا ما أخذ بعين الاعتبار الخطوط الصفراء العريضة لبيجامة أبيه. خلال كلمات قليلة، ينفجر أبوه بعد أن وصل طرفه الحساس غايته في الاحتكاك

بالسطح فيما يخص علاقته المتردية مع أمه، ثم يلـوح بيـده مودعا، كان من فرط انشغاله بالفكرة يتساءل، وكان من فرط حزنه يستعلم: ترى، ماذا يعني ذلك في عـالم المصـادفات الغريب؟!.

وانحرف جهة المطبخ الذي كان عن يمينه، ثم تنـاول علبة الكبريت وأشعل المفرقعة، دوى صوت الانفجـار فـي عمق الصالة الصغيرة التي كانت بالكاد تتسع لصـوت أبيـه الغضوب. فورا، يغمر الثلاثة صمم كثيـف، وفـي لحظـة ينقشع. كانت لحظة فناء حقيقي بالنسـبة لـلأم. شـعرت أن جسمها انهمر من أعلى ، وتفتت كالقطن في الصالة. ثم خيل إليها أنها خرجت منه أو شيء من هذا القبيل، ثم انتبهت. أما الأب، الذي انزلقت من إحدى قدميه فردة الحذاء، فكمـا لـو دخل مكرها في برميل، أحنى جذعه حتـى لا مـس رأسـه ركبتيه وأغمض عينيه بينما الخدوش والكدمات في جسـمه تنتشر، أو هكذا تخيل. ثم، أحس أنه وحيد وضائع ، أو هكذا تخيل. أو .. ربما لم يحدث مما سبق شيء. بل لـم يحـدث شيء على الإطلاق. أخيرا قرر أن من المؤكد أنه خرج من الثقب الصوتي مرتجفًا، ملوي الجذع كجورب. ثـم جـاءت

موجة الدخان في مرحلة شيخوخة كريهة حتى السـقف. ثـم نخرت الأنف الرائحة السوداء المارقة. بعد ذلـك، اسـتعاد المكان بحذر، وقته العادي، فانخرطت الأم في البكاء وألبس الأب قدمه فردة الحذاء. وكان حافل قد غادر المكان ولـيس أحد يدري متى؟

وعلى الفراش، جلس الأب ليستعيد توازنـه ويعطـي وقتًا للصفير الذي ملأ أذنيه ليتلاشى. ومر وقت وهو صامت ينتظر من قلبه أن يهدأ ويكف عن القفز في صدره. الشـهيق والزفير عنده طبيعيان، لكنه لا يحس بالهواء يدخل ويخـرج من رئتيه. صدره يرتفع وينخفض، لكنه غير ممتلئ بالحياة، ها هو مخلخل العظام داخل بيجامته، يتشبث بالبقية الباقية من قوته ليرفع رأسه وينظر حوله. رويدا رويداً، يتسع بيته تحت بصره فيضم الفراش والمرأة والصـالة والغـرف الأربـع والحوش. ويقف كل شـيء ممـا رأى بـلا قيمـة أمامـه، ولا اعتبار. يعيد النظر مـرة أخـرى. الفـراش، والمـرأة والغرف الأربع والحوش. ويقف كل شيء مما يملك في هذا البيت بلا قيمة ولا اعتبار. أفضل طريقة لإعادة النظر فيمـا حوله هي أن ينهض أولاً ويقف على رجليه لئلا يصدق أنـه

أصيب بالشلل أو بالجنون. يقف بالضبط كما كان يقف قبـل الانفجار. يمشي على قدميه مضاقًا إليهما وزن وحجم الحذاء يهمل المرأة التي كانت تنشج، ويتقدم بمشية عسـكرية إلـى الباب ثم يعود أدراجه إلى مكانه. إنه بخير وعافية. لا شلل، ولا جنون، ولا حتى آلام في المفاصل. لكنه يشعر أنه أهين وسويت لحيته بالأرض في بيته. يـدرك لمـاذا اضـطربت نظرته إلى منزله؟. لأنه أهين فيه، ومن قبل ولده، وطاحـت على الأرض هيبته بشكل غير مسبوق. مـاذا يفعـل الآن؟. يبصق على البلاط، ويسأل نفسه: ماذا يفعـل الآن؟!. هـذا الولد العاق يجب أن يوقف عند حده وإلا تطورت الأمور إلى الأسوأ. حدث نفسه. كان في لجة أفكار متضاربة عن الكيفية التي تكفل له استعادة ولده، وهيبته معا. فتى فـي العشـرين أو الحادي والعشرين ، لا يدري، في قوة بغل، يطيـر مـن تحت إبطه ولا يستطيع أن يعيده إلى إبطه لأنه كبر وصارت عظامه صلبة يخشى منها على أضلاعه. لو أعاده إليه فبـأي طريقة يمكن أن يتعايشا؟ وأين؟

كانت الأم، بعد ما ذرفت دموعها على حده، قد دلفـت إلى غرفتها وأغلقت عليها البـاب. فـي الغرفـة، وجـدت

بانتظارها كلام زوجها عنها. كرتون من الحاجات الزائـدة، غلطة حياته الأسوأ، ناكرة للجميـل، فأحسـت أن انفجـار المفرقعة كان رحيما لأنه وقع في الصالة وليس في القلـب. ليس من مجال للمقارنة بينه وبين الانفجار الذي وقع في قلبها وعلى يد زوجها. نعم، شعرت برعب شديد من جـراء مـا حدث، لكنه مئات المرات يحدث في الشارع كل يوم، ولـيس شعورها بالرعب بسبب حدوثه، وإنما لأنه وقع فجأة. أما ما قاله زوجها في حقها، فهو نار حقيقية وزوال مؤكد لا جـدل فيه. وغمرتها مخالب سؤال: الآن بعد أن أصبحت عـاجزة يتحدث عني كما لو أني قمامة في بيته؟.

وتذكرت بحزن اليوم الأول الذي رأته فيه يتحدث مـع أبيها على دكة البقالة التي كان يملكها قبـل أن يمـوت فـي حادثة دهس، وكانت وقتها لا تفكر في الزواج بل في العودة إلى حضرموت لتكمل دراستها هناك وتعيش عنـد عمتهـا للأبد. رأته بشكل جيد، تتذكر ذلك، لكنها لـم تعـر وجـوده اهتماما إذ كان مستغرقًا في المحادثة بحيث كانـت جلسـته مثيرة للضحك. وكانت من الأشياء التي لا تهتم لها في العادة كثرة جلوس الرجال مع أبيها، لذلك ما كانـت تشـد عينهـا

الأشكال، والوجوه الرائحة والغادية، بقدر ما كانـت تحـاول ألا ينقص شيء من قهوة أو شاي في الدكة. بعد يومين على زيارته الأولى عاد إلى أبيها، وانهمك في نفس الدرجة مـن الاهتمام الذي أبداه في جلسته الأولى، يتحدث، ويشير بيديـه ويبتسم بأدب. في المساء عاد مرة ثالثة ومعـه كـيس تمـر سكري وأطباق بلاستيك متوسطة الأحجام، ووضعها علـى الدكة ومضى . بعد أسبوع كلمها أبوها بشأنه:

- هو رجل مهذب ، أبوه إمام مسجد الحـي، وهـو أيضا من أقرب الجيران وهو صديقي أيضا، وقـد سألت عنه زيادة في الاطمئنان ولم أسـمع عنـه إلا الخير، وقريبا سيحصل على وظيفة حكوميـة، فما رأيك يا ابنتي؟
- ذلك يعني ماذا؟
- بعد سنوات قليلة جدا، ستحصلين على الجنسية.
- لكني، لا أفكر في الجنسية، ولا أريدها، بل أريـد العودة إلى "الصبيخ" عند عمتي كما اتفقنا يا أبي.
- وماذا ستفعلين هناك؟

- أكمل دراستي إذا قدرت وأعيش عند عمتي. مـاذا في ذلك؟
- لكنا تركناها منذ زمن ، وعشت أنت طفولتك هنا، وماتت أمك هنا، وأتمنى أن تكوني سعيدة مع رجل قادر على حمل أعباء الحياة الزوجية أكثـر مـن غيره. اسمعيني، إن أنت تزوجـت هـذا الرجـل حصلت على الجنسية السـعودية خـلال خمـس سنوات وصرت مواطنة طبيعية لك نفس حقـوق المواطنين السعوديين في أي مكان. مالـك ومـال "الصبيخ" في الوقت الحاضر، ثم لا أحد يمنعك من زيارتها في أي وقت تريدين. هذه رغبتي أطرحها عليك والقرار بيدك قبل كل شيء.

تنظر إلى أشياء غرفتها. تصعد نظرها إلى السقف، ثم تهوى به إلى الجدار الذي أمامها فتبقيه للحظات مستقرا عليه كما تفعل بعوضه خائرة القوى، ثم إلى ما بين قدميها تنظـر وقد أسهبت في لف عصائب رأسها طردا لصداع شره يمضغ رأسها من الداخل. حصلت على الـزوج، وحصـلت علـى الجنسية، وحصلت على الولد، لكنها لم تحصل على حقـوق

الزوجة. حصلت على اليـتم، وحصـلت علـى الكرسـي المتحرك، والآن حصلت على الطلاق كما لمح بذلك زوجها. تركت "الصبيخ" وتركت الدراسة، وماتت عمتها هناك ولـم ترها. أية خسائر وأية مكاسب يمكن الحديث عنها؟. كانـت كمن يحدث نفسه من أشرف على الموت أو علـى الضـياع سباحة في البحر. تمتمت: يا رب. يـا واصـل المنقطعـين أوصلني إليك. يا قريب، يا مجيب دعوة الداعي. وانبسـطت يداها على مستوى دموعها كما تفعل المزاريب مع المطر.

مع ذلك، لم تسترح ذاكرتها، بل غابت في إهاب فتـاة رقيقة تزوجت منذ اثنين وعشرين عاما أحد الجيران نـزولاً عند رغبة والدها، وهي في سن العشرين. وقالت ذاكرتهـا ، وفقًا لأحداث وقعت بعد عامين من زواجها أنها فجأة وجدت نفسها العنصر الوحيد الذي بقي من عائلتها حيا بعـد مـوت والدها في حادث دهس غير مقصود. رأت نفسها، رغم ذلك، تضيء الغرفة لعائلة جديدة بجذور جديدة. اجتمع في مطبخها البوتاجاز والقدر والأرز والملح والزيت والبصل واللحم فـي يوم جمعة، وللمرة الأولى دفعة واحدة. وفي يـوم السـبت، ملأت خزانة ملابسها فساتين طويلة، وبلـوزات، وتنـانير،

وملابس داخلية، ورصفت أحذية جديدة لها في المدخل. يـوم الأحد جاءت بغرفة نوم مجهزة بوسائل ترفيهيـة وإضـاءة خاصة. قلبت، يوم الاثنين، حياة زوجهـا بسـيارة صـغيرة وساعة يد وطقم أقلام باركر وسبحة كهرمان. يوم الثلاثـاء، قال لها زوجها: لم يتبق يا سجود من إرث أبيك شيئًا سـوى علب جبنة كرافت قليلة في البقالة. أما الباقي فقد صرفته كله في تجهيز البيت في ظرف أيام أربعة وكأنك تخشـين مـن شيء ما. بعد ذلك، قال لها: ثم إني ما كنت أعلم أن أباك كان بهذا الثراء. وبعد يومين قال لها: من أين اكتسبتم عادتكم في جمع المال بهذه المثابرة؟ وقالت ذاكرتها: لكن الذي مضـى لا يعود. وقالت هي: بالضبط مثل كرتـون مـن الحاجـات الزائدة أنا. وقالت صورتها في المرآة: وجهك يخيف لونـه وشكله. وصر الكرسي بحركة من يديها ناحية المرآة. فـي الوجه حدقت بأسى شديد. سمعت في تجاعيده صياح ديكة في فجر قديم، شهد نوبة مخاض عسيرة أسفرت عـن دحـض اتهامات شنيعة لها بالعقم. ولدت حافلاً في قرية في طريـق الجنوب بينما كانت متجهة إلى أبيها لقضاء عطلة الربيع مـع زوجها عند أخواله. بعد أن استردت وعيها كانـت الـديوك

تصيح واحدا بعد الآخر في حي قريب من المستوصف الذي صارت فيه أما. تتذكر أنها نظرت إلى النافذة التـي كانـت مفتوحة فرأت أضواء واهنة لجزء من قريـة معلقـة علـى السفح، تغط في النوم، المرات القليلة التي ذهبت فيهـا إلـى حضرموت من ذلك الطريق، كانت فيها المدن والقرى التـي تمر بها تغط في النوم أيضا. كانت الأضواء، مثـل حبـال واهنة تهتز بالقرى والأرياف التي تمر بهـا لـيلاً. أضـواء واهنة في الليالي فحسب. ليالٍ تشبه ذلك الليل الذي صـاحت فيه الديكة. تشبه هذا الليل الذي تصيح فيه وحدها.

تتساءل، لو أنها طلقت بالفعل فأين تذهب؟. وعند مـن تسكن؟. وحافل، ابنها، هل ستراه بعد ذلك؟. والمحكمـة لـو لجأت إليها هل ستنصفها؟. والجنسية التي حصلت عليها، هل ستمنحها حقوقها كاملة في بلد يعـج بالواسـطة وعلاقـات المصالح المتبادلة كما يقول زوجها؟ إنها لا تخشـى شـيئًا، خشيتها من أن يصبح واقعا لا مفر منه، انفصالها النهائي عن زوجها مطلق، لتصبح بعد ذلك بلا زوج، ولا بيت، ولا أهل، وهي في وضع صحي صعب. كانت الصالة قد توقفت فيهـا الحركة، وكفت عن تضخيم نفسها بالأصوات والجلبة، فعادت

هادئة، بسيطة كما من قبل. في الماضي، كان يخطر لسجود أن الصالة عندما تضيق بالأصوات الزاعقة، تتغيـر، تتمـدد جدرانها وتتضخم كما هو حال الخبز في التنور. لكنها لم تشأ أن تصف ذلك الخاطر بأكثر مما يستحق في وقته. كثيرة هي الخواطر التي تمر عليها دون أن تتوقف عنـدها وتـتفحص عناصرها ومكوناتها بتعمق، ولذلك فلعله يصبح من الطبيعي ألا تصفها بأكثر مما تستحق. مجرد خواطر عـابرة سـيأتي غيرها بنفس الخفة وشفافية العبور ويمضي. لكنها أمام تكرر الحدث مرة بعد مرة انتبهت إليه وتوقفت عنـده. لا تـدعي سجود أنها تنبهت له لكونها تتميز بفطنة عالية ودقة شـديدة في الرصد والملاحظة. كما لا يمكنها أن تعزو توقفها عنـده إلى قدرات خارقة تكتشف بها الأشياء وتحس بحـدوثها فـي وقتها. إنه مجرد إحساس يقع فـي طريقـه ذلـك الشـيء، ويتراعش معه. يتواءم ونبذباتـه المتناهيـة فـي الضـآلة والسرعة ويستقريه من الداخل. يمكنها القـول أن الصـالة بالفعل لا تكون في أحوالها العادية وقت حدوث مشاجرة على أرضها، وتحت سقفها، وبين جدرانها الأربعة. تشـعر أنهـا على نحو ما تتفاعل مع ما يقع بداخلها من أحداث وما يكون

من أحوال. ربما يعود فهمها ذلك، إلى أن الصالة هي أكثـر الأماكن في البيت التصاقًا بها، وحنوا عليها ولـذلك ألفتهـا وتعايشت معها فصارت بالإحساس بها تعـرف تحولاتهـا. تستدرك: ربما. فهي ليست متأكدة من ذلك، وليست متأكـدة من شيء آخر. بل إنها لم تعد متأكدة من أي شيء . ما هـو الذي يحملها على مثل هذا الهذر؟ ألا يكفيها ما هي فيه مـن حال؟!.

لم تتكلم، بل فتحت باب الغرفة لتتجـه إلـى المطـبخ لتشرب شيئًا يبل ريقها. على الباب وجدت خادمتهـا كأنمـا كانت تتأهب لتطرق عليها الباب. أخذت الخادمةَ المفاجـأةُ، وابتسمت، وتأخرت عنها لتمر. سألتها سجود عما إذا كانـت رأت حافلاً يعود؟ أجابت الخادمة بالنفي. ودون أن تتوقـف الخادمة عن الكلام أخبرتها أنها نزلت اللحظة من غرفتها في السطح لتطمئن عليها، ثم سألتها عن رغبتها في تناول شيء معين يمكنها عمله؟.. أجابتها سجود، كأس ماء لا غير. غير أن الخادمة، رغم ذلك، أعدت لها شاي نعناع بحماس ظاهر. وكانت قد نظفت الصالة ورتبتها بعد أن غادر مطلق المكان، وهيأت لمخدومتها مكانًا يليق بالصلاة وفيه وضعت جـالون

زمزم صغير للشرب عند اللزوم ومصحف وعلبـة منـديل. بعدما اطمأنت على وضعها، ذهبت إلى غرفتها فتفقدتها. لما تأكدت أن كل شيء على ما يرام، صعدت إلى غرفتها فـي السطح لتكمل كي الملابس وترتيبها ومن ثم لتنام. في نيتها، كانت قد أزمعت أن تسألها عن الذي حدث، لكنها تراجعـت خوفًا من أن تتهمهـا بالفضـول الزائـد ودس أنفهـا فيمـا لا يعنيها. إضافة إلى ذلك، لم تكن مخدومتها بحالـة نفسـية جيدة لتشفي غليلها في فهم ما جـرى، عنـد ذاك أفرغـت فضولها في صنع الشاي وعادت إلى غرفتها على أمـل أن تفهم القصة في وقت مناسب.

نزع الشاي بحرارته، احتقان الشفتين، مزيجـا بـذلك جدلاً كان سيبدأ مع الخادمة حول الذي جرى. كانت بحاجـة للحديث مع أي شخص للتخفيف عن معاناتها ولو بمجرد أن تحس أن ثمة من ينصت لها فحسب. بيد أنهـا لـم تشـأ أن تحشر خادمتها فيما لا يعنيها ففضلت عض الشفتين وارتشاف الشاي في المطبخ مصغية للرياح في الخارج ولما يتـدحرج في الطرقات من كراتين وعلب فارغة. الإصغاء إلى الرياح، وهي في ملاذها، يمنحها الأمن. يهبهـا السـكينة المطلوبـة

لجعلها تتخلص من التوتر والشعور بالوحدة بشكل أفضـل. وحافل هناك، في مكان ما، لا بد أنه تسيطر عليه حالة مـن الجفول مما جرى. كانت تريد أنتفهم لماذا فجر المفرقعة في البيت، وبحضور والده؟. لم يعملها من قبل. نعم. لكنـه لـم يخف يوما تذمره من الوضع. كان كثيرا ما يسألها: لماذا أبوه تركها وهي في تلك الحالة، ولم يهتم لأمرها كمـا يجـب؟. وكانت تجيبه: الرجل لا يترك زوجته إلا عندما يطلقها، لكنها المشاغل فقط التي تمنعه مـن الحضـور. وكـان يسـألها: والنصرانية، لماذا لا تمنعه المشاغل من رؤيتها كـل يـوم والنوم عندها والخروج معها أينما تريد؟. وكانـت تجيبـه: أليست زوجته؟. وكان يجيب: وكذلك أنت.

ذات مرة سألها: لِم لم يتـزوج أبـى بسـعودية مـن جماعته؟ أليست بنات أعمامه فوق خمس عشرة فتاة كلهـن صالحات للزواج؟. وفي المرات التي واجهه فيها أبوه، كـان يهدد أباه بالسفر لحضرموت ويقسم أنه لن يعود إليـه أبـدا. عندما تسأله هل هو جاد في كلامه، كان يقول لـولاك لمـا عشت لحظة واحدة بالقرب منه. غير أن جرأته في إشـعال مفرقعة أمامه، وفي بيته، كانت من الشدة بحيث تبـدو بقيـة

الأشياء أمامها باهتة. بكلمات قليلة بدأ اللقاء مع أبيه، وبدوي مفرقعة ختم حضوره وغادر. لا بد أنه هناك، في الأمكنة الفارغة المعتمة من المدينة، مثل طفل متشرد، يرتجف من الوحدة ويبكي، لو كانت تستطيع المشي، لخرجت للبحث عنه في كل الأحياء حتى تجده. ولطرقت كل الأبواب، و لسألت عنه كل الأصحاب الذين يعرفونه في الحي. بهذه الأفكار وبمثل هذه الأسئلة، كانت تفكر وتسأل وهي في وسط المطبخ ووجهها ناحية النافذة، فجأة، سألت نفسها: منذ متى لم أغادر هذا المكان لغير عيادة طبيب السكر والضغط؟. لا تدري بالتحديد. ربما تجاوزت المدة الزمنية العامين. كانت تحسب الأيام عندما كانت شابة تسير على قدميها وتتابع التاريخ في التقويم، كل يوم كانت تترع ورقة التقويم ثم تقلبها لتقرأ ما على الصفحة الخلفية من حكم وأمثال وقصص طريفة. أما ألآن فحسبها، أن تعرف أن الليل ليل وأن النهار نهار، وهي في بيتها، للمحافظة على أوقات الصلوات والصيام. لكن لماذا عليها أن تغادر البيت من الأساس؟ من لها في الخارج لتخرج إليه على أي حال؟

كان شاي النعناع المر قد نفد. وكانـت قـد وضـعت الكوب على الطاولة. عندما رأته يقف على بـاب المطـبخ، صامتًا يتأملها:

- حافل!

نادية تحت وقع المفاجأة. وأكملت:

- اقترب ودعني ألمسك وأراك بعيني.

قبل يديها ورأسها، ثم دفع كرسيها إلى الصـالة وهـو يعتذر لها عما حدث.

- لماذا فعلت ذلك، ولماذا أغضبت أباك وأرعبتني؟

سألته مستفهمة رغم ما طرأ على صوتها مـن نبـرة عتب أجابها على الفور، وكأنه يقرأ من ورقة:

- تعرفين يا أمي، أني أريد أن أتغير إلى الأفضـل. توقفت عن السهر إلى وقت متـأخر مـن الليـل. وبدأت المواظبة على الدراسة، وصـرت أطيعـك بشكل أفضل. بل صرت أنام فـي الصـالة كمـا تعرفين لأكون قريبا منك في أي وقـت تحتـاجين إلى مساعدة. صحيح، أنني بقيت لساعات قليلة في غرفة التوقيف. غرفة التوقيف هذه تقع في مركـز

الشرطة. ليست حبسا ولا في الحبس هي، بل هي غرفة تخصص في نفس الإدارة لمن يعمل شوشرة صغيرة، أو يقوم بخطأ عارض ويتخذ في حقه إجراء يناسب خطأه. أبى قال أنها سجن، وهي ليست كذلك.

حالما أوصلها مكانها المناسب في الصالة، قام بشد كابح الكرسي، وجلس على الفراش متربعا، كالمعتاد، بالقرب من قدميها. وأكمل:

- أوقفوني في انتظار الضابط، لكن صديقي مساط ساعدني في الخروج من التوقيف في الوقت المناسب.
- وكيف أوقفوك؟.

سألته دون أن تقتنع تماما أن ثمة فرق بين الحبس وغرفة التوقيف. كلاهما يحمل نفس المعنى ونفس المهمة. أي شخص يعرف ذلك. تتساءل فقط: أليس الهدف هو منع الشخص من الخروج والذهاب إلى المكان الذي يريد في أي وقت إلا بإذن من لديه الصلاحية في الأمر بالحبس وإخلاء السبيل؟. ليس هذا هو المهم، بل المهم هو لماذا يذهب

الشخص إلى هناك في الأصل؟.، هكذا فكرت بينمـا كانـت تنتظر منه الإجابة على سؤالها. تنبهت قبل أن يجيب، إلى أن سؤالها كان يجب أن يكون لماذا أوقفوه، وليس كيف أوقفوه؟. عند ذاك. وكان قد بدأ في الكلام، قاطعته ملقية إليه بالسـؤال في صيغته الجديدة. ارتبك بعض الشيء لكنه، على أي حال، كان قد بدأ حديثه في شرح كيف قبضوا عليه، حينذاك فكـر في أنه يمكن أن يجمع بين المقصود من سؤالها وما بدأه من حديث. كنت في الأرض البيضاء المحفورة التي تفصل بـين فيلا العمدة والعمارة السكنية التي خلفها عندما جاءتني سيارة الشرطة فسدت على طريق الخروج، وكنت وقتها لم أكمـل إشعال لفة "الطراطيع" التي كانـت معـي، فأمسـكوا بـي وصادروا ما تبقى معي منها، ثم أخذوني إلى مقر الشرطة.

وليهون عليها الأمر، أخبرها أنهم كانوا قد أخذوا ناجي ابن صاحب مخبز السلام قبل يومين من نفس المكان ولنفس السبب، وأعادوه إلى البيت بعد ذلك.، رشيد الرمـان، أحـد معارف محصل فواتير الكهرباء فائز الرمان، حكى له أنهـم أمسكوا به ثلاث مرات، ومرة واحـدة كانـت مـن الـدفاع المدني، وأردف حافل:

- ما كان ليحدث شيء لو أن الشـرطة لـم يبلغهـا خبري مضخما ومبالغًا فيـه. كـل العـالم تبيـع وتشتري في "الطراطيع" ؟ لتشعل فيها النار وليس لتخزينها في المستودعات، أليس كذلك؟ ثـم هـل يريدونني أمارس هذه اللعبة في الربع الخالي مثلاً يا أمي؟. هل وجدت أماكن مخصصـة لممارسـة مثل هذه الأشياء فيها المواصفات التي يريـدون؟. طيب، لماذا لا يمنعونها من الدخول إلى البلد نهائيا ما دام أن اللعب بها ينتهي بالشخص إلى الشرطة والدفاع المدني؟. لماذا لا يصلون إلى المـوردين الحقيقيين ويلقون عليهم القبض مثلما قبضوا علـي وعلى غيري، ليستريحوا من هذا العناء؟

نظر إلى أمه وارتسمت على شفتيه خطـوط ابتسـامة عريضة قبل أن يقول:

- هل تصدقين يا أمي أن أبي واحد من هؤلاء الذين يتاجرون بها في الخفاء؟

التهمت وجهها المفاجأة. هل هذا معقول؟ مـا كانـت لتستوعب ما قال بسهولة، وقد رأت زوجها في الصالة يكـاد

يتمزق من الذعر بعد انفجار المفرقعة. بل لم يخطـر علـى بالها لحظة واحدة أن يعمل رجل مثل زوجها، يغلـب علـى سلوكه طابع الجدية وقسوة التعـالي، فـي هـذه الصـنعة المستهجنة كما يصفها. لطالما سمعته، في هيئة يفيض منهـا مظهر الوقار، وهو يرفض وجودها ويندد بمن تـورط فـي ملء أيدي الأطفال بتلك المواد المزعجة والخطرة، بـدل أن يتعلموا ما يفيدهم.

- حقًا، هل أنت متأكد مما تقول؟

سألت ابنها بفضول كبير.

أجاب:

- هو لا يعلم أني أعرف ذلك عنه.

قال لها ذلك بشيء من الثقة والإحساس بقيمة ما يملك.

- وكيف عرفت ذلك عنه؟

طرحت السؤال عليه وهي تريد أن تفه شيئًا واحـداً، وهو لماذا زوجها، إن كان بالفعل يمارس هذا النـوع مـن التجارة، يكتم عنها هذا العمل؟. ما الذي يضطره إلى ذلك؟. هل هو الخوف عليها، أم أن سر المهنة يستدعي كـل هـذا

الحذر والتكتم لئلا تفسد عليه امـرأة مصـالحه السـرية؟. أم يعود ذلك إلى لا مبالاته بها التي عرفتها عنه:

- العم قائد الأشول، هو الذي أخبرني.

أجابها حافل بلا تردد، ثم شرح لها:

- في أحد الأيام، وكان مزاج العم قائد رائقًا، سـألته من أين تأتيك هذه الكميات الكبيرة من المفرقعـات يا عم قائد، وأنت كما أعرف لا تـذهب إلـى أي مكان، ولست بالرجل صاحب العلاقات الكبيرة في المجتمع؟. عندها أجابني بهـدوء: كلامـك عنـي صحيح، بل إني ما كنت أفكر أن يكون هذا مصدر رزقي بعد توقفي عن ممارسة مهنتي كبناء، لكـن ثلاثة أشخاص، كنت قد بنيت لهم عمـاراتهم فـي الماضي وبقيت عليهم مستحقات مؤجلة، طالبوني بالعمل كشريك في بضاعة يديرونها على أن يكون رأس مالي هو ما كان لي عليهم مـن مسـتحقات مالية، فوافقت. لكني اكتشفت أن بضاعتهم هي هذه المفرقعات التي تهرب إلى الـداخل مـن منافـذ حدودية، ويقومون باستلامها وتوزيعها، بعد ذلك،

على عملاء يثقون بهم في كل مكان. لم أوافق في البداية، لأني فكرت أنه إذا ما حصلت أية حركـة من قبل الجهات الأمنية لتعقبنا، فـلا أسـتبعد أن أكون الشخص الأول الذي يقع في أيديهم لكـوني، كما تعرف لست من أهل البلد، وعلاقاتي صارت محدودة للغاية، تلكنهم سرعان ما بـددوا تـرددي بتأكيد حمايتي من أية ملاحقة، وأن مـا يصـيبني سيصيبهم في الخير وفي الشر، عنـدها وافقـت. وهأنذا من سنوات عديدة أعمل كما تـرى. أبيـع فقط. أبيع عليك وعلى غيرك من الأولاد، وعلـى النساء، والمقيمين الذين يبيعون بـدورهم دون أن أتعرض لخطر حقيقي. يوقفوني ويطلقون سراحي، ثم يوقفوني ويطلقون سراحي، وهكذا حتى تعودت على المسألة. لحظتها، يا أمي، استبد بي الفضول لمعرفة هؤلاء الثلاثة الذين يتحدث عنهم، وكـأنهم أهم من في الحي، وخطرت على بالي أسماء كثيرة لها وجهتها في الحي، مثل العمدة بريكـان لبـاد، وهزاع المعو، العقاري الكبير، عم صديقي مسلط

الذي توسط في إخلاء سبيلي، بل خطـرت علـى بالي أسماء مـوظفين مرمـوقين فـي البلديـة، والضمان الاجتماعي، ومصلحة البريـد، وخطـر على بالي اسم ضابط الشرطة الذي في حارتنـا، فسألته وأنا في غاية الشوق لمعرفة أسمائهم: مـن هم يا عم قائد هؤلاء الأشخاص الثلاثة؟. تصوري، عندما سألته هذا السؤال انتفض كما لو أني رميت في حجره مفرقعة تشتعل، وقال لي: وأنت مالك؟. كأني كنت سألته عن اسم زوجته في اليمن، أو عن أسماء الجن التي تأخذه على أجنحتها إلى المكـلا في كل ليلة.

وضحك حافل بصوت لم تكن أمه قد سمعته منذ زمن. وشعرت ببهجة إذا وجدت ابنها يقص عليها أحاديث النـاس، ويعلق، ويضحك، ويطرد شعورها القاتم بالوحـدة والعجـز وقهر الزوج، جلوسه بين قدميها، لم يغيره أبدا، منذ أن يبس جذعها السفلي وحل به التلف. فـي الصـالة، علـى نفـس الفراش، وبنفس الجلسة، أي أنس ستشعر به في مكان آخـر مع سواه؟. لكنه مثل الطائر الطليق لا تبقيه الآفاق الواسـعة

في مكانه على الدوام. لا يكاد يقر بالبيت. يأتي من المدرسة، وبعد أن يتناول غداءه. يخرج من الدار. كـأن دارا أوسـع تنتظره في الخارج. وهي شعرت باعتدال المزاج، وهـدأت عروق القلب بعض الشيء وهي تنصت لابنها فـي عمـق الصالة يحكي كما لم يحدث من قبل.

من خارج السور، سمعا صوت صاروخ يرتفع في ليل الشارع المجاور، ثم ينفجر بالقرب من سطح المنزل. أخذت وجه حافل ابتسامة مفاجئة، وبدر من جسمه حركة صـغيرة إلى الأمام، لكنه سارع إلى إخفاء انفعاله المباغت في جسمه، وأكمل:

- قال لي العم قائد: أنا هنا لأبيع لا لأتحـدث عـن فلان وفلان. سألتني عن المفرقعات فأجبتك، لكني لا أحب الخوض في أمور لا تعنيك. قلت له: أود فقط معرفة أسمائها من باب العلم بالشيء ليس إلا. رفض بشدة وأصر على موقفه. وفيما أنا منهمـك في محاولاتي معه لمعرفـة أسـماء الأشـخاص الثلاثة، سمعنا طرقًا على الباب فنهض، وكان من عادته أن ينظر من خلال ثقب في الباب إلى وجه

الطارق قبل أن يقرر فتحه، فلما نظر إلى وجه الطارق، مكث مليا يحدق فيه. ثم عاد إلى بوجه مضطرب وقال لي: أبوك عند الباب. وفي الحقيقية لقد صعقت واستغربت حضور أبي إلى عزبة العم قائد. خلته يمزح، لكنه أكد لي: أنه يقف الآن أمام الباب. قال لي ذلك هامسا، ثم صرخ للطارق. طيب، طيب، دقيقة واحدة لألبس. سألته ماذا يتوجب علي فعله، وفكرت في الخروج من فتحة جدار المطبخ إلى الشارع الخلفي. حذرته من أن يراني عنده أو يخبره بأي شيء عني. فما كان منه إلا أن أخذني إلى الدولاب الفارغ وحشرني فيه داخل القسم المخصص لتعليق الثياب ثم أغلقه. غشاني ظلام الدولاب، لكني كنت أتنفس بشكل طبيعي، وأسمع أصوات ما يدور في الداخل. سمعته يفتح الباب وهو يقول: حياك الله عم مطلق أهلاً، أهلاً، تفضل اجلس هنا. وسمعت صوت أبي وهو يتحدث، والأرجح أنه أجلسه في المكان الذي كنت جالسا فيه. كان الصوت صوت أبي بالفعل،

ويا للغرابة!، فقد سمعته يتكلم باللهجة اليمنية، مـا جعل العم قائد يضحك طربا، ويحاف أن يعمل له كوب شاي من النوع الذي يصنعه لنفسـه. بعـد لحظات سمعت العم قائد في المطبخ يحضر أواني الشاي، ويشعل الدافور، في الوقت الذي كان فيـه أبي يلعب بمؤشر المذياع ويحاول ضبطه علـى إذاعة في باله ربما لسماع أخبار المساء، لكنه كان في كل مرة يفشل في اقتفاء أثر الموجة المطلوبـة لالتقاط الإذاعة. كنت، يا أمـي، فـي الـدولاب لا أستطيع تحريك قدمي لحمايتهما من البعـوض الذي لا بد أنه كان نائما في الدولاب حين دخلتـه. كنت فقط أهزهما بدءا من الكعبين باستمرار وكنت نادرا ما أنجح في تخفيف ألم اللسعات المتكـاثرة التي وصلت حتى منتصف ساقي. وكنت أعـرق بغزارة، لكن أذني بقيتا متيقظتين لأية حركة ولأي صوت في الداخل. عاد العم قائد بالشاي، وسمعته يعتذر لعدم وجود ما يؤكل تحت الشاي، لكن أبـي كان قد وصل به التذمر من فشـله فـي التقـاط

الإذاعة إلى أن وصف المذياع بالخردة وقـال: أن أي مذياع لا يأتي بأخبار لندن صافية لهو خـردة. ضحك العم قائد وأجابه: والله يا عم مطلـق مـا اشتريته لأسمع فيه لندن بل لأسـمع فيـه إذاعـة صنعاء وأيوب طارش. ثم سمعت المذياع ينتقـل مؤشره بسرعة من إذاعة إلى أخرى حتى وصـل إلى إذاعة صنعاء. المهم، يا أمي، قال له أبي: ما هي الأخبار؟. فأجابه العم قائد: يبقى ثلاثة أرباع. وسمعت العم قائد يخفض صوته إلـى أقـل مـن صوته المعتاد، وكأنه كان لا يريدني أن أسمع شيئًا مما يريد قوله لأبى. وفي الواقـع، كـان صـوته يختلط وصوت برنامج إذاعي في إذاعة صـنعاء فيه رجال عديدون يتحدثون ثم في كل مرة يتخلل حديثهم موسيقى يمنية، فلم أستطع أن أدخل ما بين أصوات المذياع المتعددة، وصوت العم قائد، غير أنه، ولحسن الحظ، ، طلب أبى من العم قائـد أن يطفئ المذياع لأنه يسبب له إزعاجا وقلة راحـة. عندها أدركت أن العم قائد لا يمكنـه أن يخفـض

صوته أقل مما لا يمكنني سماعه. سأله أبي: يعني متى نأتي بالشحنة الجديدة؟، تنحنح العم قائد، أمـا أنا فلشدة ذهولي اختل توازني واتكأت بلا قصـد على الدولاب بشقي الأيمن، فاضـطرب الخشـب وارتفع له أطيط غير عادي، فما كان من العم قائد إلا أن صرخ: يا بس.. ثم أردف: يـا لهـا مـن مزعجة هذه القطط الدواجة. عندها علق أبي على وضعية المطبخ وجداره المفتوح طوال الوقت وأبدا يأسه من أن يسمع له العم قائد ويسد الفتحة. عـاد إلى السؤال مرة ثانية أبي، وعاد العم قائـد إلـى النحنحة. لكنه لم يستطع التأجيل إلى ما لانهايـة، حينها طلب منه العم قائد أن ينتظر أسبوعين كحد أقصى لتصريف الموجود. في تلـك اللحظـات، سمعت صوت درج يفتح ثم صوت خشخشة ورق ثم جاءني صوت العم قائد وهو يقول: هذا ما تـم جمعه خلال الأيام العشرة الماضية. فسـأله أبـي على الفور: كم المبلغ؟ أجاب العم قائد: ثلاثة آلاف وسبعمائة وتسعة وستون ريالاً. صرخ أبي محتقرا

المبلغ: فقط؟!. فرد عليه العم قائد: السوق راكـدة هذه الأيام، فنحن في آخر شوال كما تعرف. فقال له أبي مستنكرا كلامه كما بدا من لهجته: بل أنت الكسول يا قائد، ولو بقيت على هذا الحال، لا تبيع إلا لمن يأتيك في بيتك، لربما وجـدتك ذات يـوم تحمل متاعك على رأسك واقفًا في طريق الجنوب تريد المكلا. ضحك العم قائد من كلامه وطلب منه أن يبقى معه لتناول خبز التنور والعسل الأسـود، لكن أبي رفض حيث قال: زينب وحدها بالبيت.

أرخت الزوجة رأسها حزينة، منكسرة الضوء. كانـت أيضا تود أن تعرف لماذا يخفي زوجها وجهه حينما يتعلـق الأمر بالاتجار في بيع المفرقعات، بينما الكثير يجـاهر فـي بيعة وتوزيعه على الملأ؟. كان أفضل له ألا يرخص نفسـه أمام نفسه بدلاً من إظهارها عزيزة أمـام النـاس والواقـع بخلاف ذلك. إذًا، لم يكن امتلاؤه بالقوة، وحـالات الغضـب التي تنتابه، ونظرته المتعالية لها، وكلامه القاسي في حقهـا، وغير ذلك من المظاهر السلوكية التي تطبع شخصيته بطابع الرجل المتسلط الفظ، كل هذه الممارسات، لم تكن إلا طبـاع

الرجل نفسه الذي يلبس ثيابه، ويحمل لحمه ودمه، ويهيج في بيتها. أما الرجل المستعار لحالاته الأخرى، ففي مكان آخر. عند زينب، أو عند الأشول، أو عند آخرين لا بد أنهـم مـن فرط أهميتهم عنده لا يجرؤ على التفكير في صـنيعه. وقـد يكون العكس هو الصواب. لماذا لا تكون هـي المحظوظـة بإطلالة الرجل التحفة الذي يتباهى بتمثاله المزيف في بيتها.

حزينة، منكسرة الضوء، سألت ابنها الذي كان قد فتح نافذة إحدى الغرف ليرى أي أصحابه يلعب في شارع البيت بالقرب منه، ثم عاد إلى مكانه:

- حافل، ولدي، هل هو أبوك بعينه؟ هل أنت متأكـد من أنه أبوك؟

أكد لها حافل أنه رآه من فتحة الدولاب وهـو يضـع المال في جيبه ويعطي الأشول، مبلغًا من المال لا يدري كم مقداره؟ ثم بعد ذلك رآه من ثقب الباب بعد أن خـرج مـن الدولاب، وهو يركب سيارته. وأكمل حديثه وهو يدلك يـدها اليمنى بيديه:

- هو بشحمه ولحمه وسن الذهب اللامع في فمه.

ثم أضاف موضحا:

- لما سألت العم قائد منذ متى وهو يأتي إليـه لهـذا العمل، أجاب منذ ثلاث سنوات. أي فـي الوقـت الذي عانيت فيه أنت من مشاكل الظهر وتزوج هو النصرانية. لكن، لماذا لجأ إلى هذه المهنـة؟ هـل بسبب حاجة ماسة إلى المال، أم أنـه، ولأسـباب غير معروفة، أحد الأشخاص الثلاثة الذين يعمـل معهم العم قائد؟ لا أفهم هذا الوضع.

أما هي فلا تريد مزيدا من التوضيح لتفهم لماذا أشعل ابنها في بيتها المفرقعة؟. كان يريد أن يقول له أنهـا إحـدى بضائعه، وأنه على اطلاع بما يحدث وليس مجرد شـخص يشتري الألعاب النارية ليحرقها من أجل اللهو كما يفعل بقية الأولاد. لطالما وثقت في عقل ابنها وذكائه. أحيانًـا، يقـوم بأفعال لا يقوم بها من هم في مثل سنه. وتساءلت ما إذا كان فهم أبوه المغزى؟ أعادها إليه سؤاله المفاجئ:

- لكن قولي لي، يا أمي، هل هو جاد في كلامه الذي ألمح فيه إلى نيته بالطلاق؟

لم تجبه على سؤاله. كانت مستغرقة في ملاحظة ترى أنها جديرة بالتأمل. كانت تقول في سرها، ها هو حافل أيضا

لا يريد أن يتوقف عن الكلام وكأنه بصعوبة وجد وقتًا مناسبا ليتكلم.

(٥)

تتساقط عيدان النهار صفراء في إثر شـمس كبيـرة تغرب. وإذ تغيب تماما، تطفو على الأرض ساعات المسـاء بإيقاع رتيب الشفق أولاً، مثل سهل من النمـل ينهـار فـي البحر. عندئذٍ يستوي مـيلان الأرض فـي أجنحـة طيـور تتحاشى الارتطام بأعمدة إنارة لم تصح بعد. مسرعة تـؤوب إلى مجاثمها على الأشجار وفي ما سمحت به البيـوت مـن تجاويف وذرى. ثم الغسق تاليا حيث لا يـرى أيـن يضـع قدميه. جاء الليل، رددت ذلك مجتمعة أعمـدة المصـابيح إذ تضيء. أذاك، اطمأنت المدينة إلى الوضع الجيـد لمحطـة الكهرباء الوحيدة التي تغذيها بالضوء. وانفتح صـدر مـدير المحطة بهواء الليل الطازج، وصدحت على جبينـه عنـادل السعادة. غير أن دلو الليل الضخمة انـدلقت بغـزارة علـى بعض الأحياء الشعبية القديمة، ما جعل بعض الأزقة تمتلـئ بصرير الأبواب وهي تتلمس طريقها في ضـوء الفـوانيس. وفي بعض الأنحاء لف المكان صرار الليل، ثم رفـع نشـيد رجليه الخلفيتين في تحية مسائية للحجارة والشقوق السـوداء

التي ترتادها أنثاه. وغمرها الترف لاحسة السكر في مخـزن تاجر يبيع بالجملة بضاعته الحلوة في النهار فقط.

بيد أنه بعد مضي وقت، ما لبثـت أن اسـتوت فـوق المدينة رتيلاء ضخمة حالكة السواد، ثم راحت تضغط تحت بطنها الشوارع والأزقة لإشباع رغبتها في إنهـاك الضـوء ومن ثم لدغه في مقتل ليصيب المدينة بكاملها الظـلام. لـم تحتمل مولدات الضوء، في ساعة من الساعات، نقر العتمـة الحاد لأسلاكها العارية المنشـورة علـى أبـراج حديديـة، فانهارت بغتة. وخطفت عين الأفغاني عند ذاك شعلة الفـرن الصافية في مخبزه الملتوي، فرفع يده عن مقـبض ملقـاط الخبز والتفت مادا بصره إلى الخارج متسائلاً: ماذا حدث؟!.. ولم يجد شمعة في محله بائع اللمبـات وأقـلام الفلورسـنت الضوئية، فاضطر إلى إشعال ولاعة سجائره علـى دفعـات ليرى الطريق.

عم اللون الأسود المكان. لون الفحم المنسل من خشب السمر في مطاعم المندي، والألواح المحروقة عرضـا فـي الطرقات ومواقع العبث اليومي للمراهقين. كأن طبولاً، فـي ساعة زحف ظافر، تدقها صفائح الظـلام السـميكة، بينمـا

انحسرت في البيوت الحركة إلى مرمى شمعة هنا وهنـاك. وارتفع ولع النظر إلى الأشياء في العيون فاتسعت الحدقات. أما الشوارع التي كانت تجلوها بالضوء أعمدة الإنارة، فقـد امتلأت بهواء متوجس تمرغ في رقاب العابرين المتلفتة حتى ثخن. في هذه الأثناء قيل أن ثمة من رأى على عجل شـبحا في الظلام يقف أمام جدار ويحرك يده كمن يرسم شيئًا مـا. لكن المدينة المعتمة لم تنصت لشيء مثل إنصاتها، في تلـك اللحظات، لأصوات سيارات فرق الصـيانة وهـي تحـرك رافعاتها في كل الاتجاهات بحثًا عن ضوء لسمعة الشـركة. هل وجدت شيئًا؟. تلتقي على مثل هذا السؤال أفواه الفنيـين ومهندسي المواقع، وهم يفحصون خطوط الضغط في أعالي الأبراج، وداخل محطة الكهرباء، بينما اكتفى من ظن أنه لم تخدعه عينه لحظة أن رأى الشبح أمام الجدار، بأن يسـأل: ترى، هل كان يرسم في الظلام ما يمكن رؤيته؟

وفي الصباح، عندما تفتح صنابير الماء بشكل عادي، سيتجشأ بكثير من الحبور بائع البليلة المتجول بعـد إذ غـنم ساعات نوم مريحة. ثم إنه عند العاشرة صباحا، يلزمـه أن يخرج لقبض ما تبقى من حساب له عند بعض فني محطـة

الكهرباء الذين كانوا أمضوا معظم ليلتهم في إصـلاح أحـد المحولات الرئيسة. في الطريق سيلتقي به مسـلط، وبـدافع الفضول سيسأله إذا كان حقًا رأى الشخص الذي يرسم علـى الجدران؟

وقبل ذلك بساعات، كانت لما أحست بانقطـاع التيـار عن بيتها، دفعت سجود نفسها على كرسيها إلى الصالة وقـد مسها قلق وانزعاج. ظنت أن التيار إنما انقطع بسبب عـدم تسديد الفاتورة ولكن تبين لها أن الحي بكامله تغمـره نفـس الظلمة. خشيت أن تسقط بين سريرها والكرسـي لأن أحـد عكازيها انزلق سنتمترات من مكانه، وحين توسـطت مـن الصالة لم تجد حافلاً على الفراش. خمنت أنـه ذهـب إلـى الحمام، غير أنها، لما تأخر كثيرا، رجحت أن يكـون فـي غرفته بسبب الحر في الصالة. لكنها بعـد منتصـف الليـل فوجئت به يدخل البيت قادما من الخارج:

- حافل، هل أنت بخير؟

قالت ذلك السؤال، عند الساعة الواحدة صباحا، وكانت قد ظنته أرتكب خطأ ما فصعد إلى السطح بعد إذ تيقنت أنـه ليس في غرفته لأن الغرفة لما فتحتها استقبلتها بسرير فارغ.

لم تذكر له أنها فكرت في أمـر السـطح بجديـة كبيـرة. فالخادمة، على أي حال، لا تفتح بـاب غرفتهـا لأي كـان، فكيف تفتحه لمن جاء إلى السطح بالخطأ، أو بسبب خلل في تحديد الاتجاهات؟!. لم تقل له أنها فكرت ، أنها فقط، فكرت في احتمال أن يكون قد صعد إلى السطح ليرى الحارة فـي الليل الحالك. بيد أنها ما كانت لتغفل احتمال خروجـه مـن البيت، حينما وضعت في الحسبان، مرات سابقة خرج فيهـا من المنزل بعدما أوى إلى فراشه. رأته يضطجع على جنبـه ويدخل في نوم لا تعلم كيف سقط عليه دفعة واحدة. المهم أنه لم يأت من السطح، حدثت نفسها بتلك العبارة ثم تركته ينام.

لمسلط، لم يؤكد بايع البليلة من كان ذلك الشخص على وجه التحديد. قال أنه رآه فحسب واقفًا أمام الجدار تتحـرك يده على الطوب إما برسم أو بكتابة، والأرجـح أنـه كـان يرسم، ومن جهتـه، افتـرض مسـلط أن انقطـاع التيـار الكهربائي، وشعور بائع البليلة بالخوف من الظـلام الـذي باغته سيما وأنه كان وحده، أضافا إلى ذلك الشـخص بعـدا شبحيا يبعث على الوجل في نظر البائع، ما جعله يسرع فـي الخروج من المنطقة في الحال. وهذا ما اضطر إلى شـرحه

لاحقًا البائع بالفعل، مضيفًا إليه في النهاية الحكمة التي تقول "يا داخل بين البصلة وقشرتها، مصيرك تطلع منها عريان " بعد لحظات صمت، قال أنه خيل إليه وكأن طـوب الجـدار كان وقتها يعلو ويهبط مع حركة يده. هذا كل ما يستطيع أن يقوله الآن. وخرج من دائرة اللقاء بخطـى حثيثـة وعلـى مسافة أمتار من مسلط قال له: في أمان الله.

بعد أيام، تبين له أن ما دار بينه وبـين مسـلط ، دار بروايات متعددة بين كثيرين، غير أن السند فيها كان يرجـع بشكل عام إلى مسلط عن بائع البليلة نفسه. انتشر الخبر بين مجموعة مسلط أولاً، ثم سـرعان مـا وصـل إلـى بقيـة مجموعات المراهقين في الحارة، ثم في سائر المدينـة بعـد ذلك. واشتهر بائع البليلة بكونه الشخص الذي رأى الرسـام على الجدران. وأنه رأى الطوب يعلو ويهبط مع حركة يده. بعد ذلك رآه يعدو كالذئب متجها إلى حوش المسـاكين فـي طرف المدينة وفي يده شعلة ملونة. تقاطر عليه وعلى قـدر البليلة الذي تحمله عربته، الباحثون عن تفاصيل أكثر دقـة. صار قديما ومملاً، كل ما تداوله الناس في الفترة السابقة عن الرسام. الأخبار الجديدة، والتفاصيل التي لا يعرفهـا أحـد،

موجودة عند بائع البليلة سلامة الحـواز. سـلامة الحـواز لا غير. أية نجمة حظ من السماء طاحـت علـى قـدره؟، مندهشًا تساءل. لم يصدق ما رآه يحدث بين يديه في بـادئ الأمر، بيد أنه أمام الزحام على قدر البليلة، وتكاثر الطلـب على معرفة المزيد عن القصة، وبعضهم وصفها بالمغـامرة، لم يجد بدا من استنفار خياله وتركيب الصورة بأجزاء جديدة لم يسبق أن أعلنها لأحد. بل إنه حضر في بيته نوعـا مـن البليلة بإضافات جديدة من التوابل أطلق عليها "بليلة الرسام". وكتب على مقدمة العربة "يسعدنا أن نفوز برضاكم. تمتعـوا بتذوق بليلة الرسام في كل الأيـام". وصـرخ ذات غـروب دافئ، يا لها من أيام سعيدة يا سلامة!. حتى أن فريق مراقبة الأسواق عامله باحترام وغض الطرف عنه وهو الذي كـان يمنعه من البيع أمام واجهات السوق الرئيسـة. وجـاء إليـه مساط وأبدى له سعادته من رؤيته بحال أفضل ملمحـا إلـى دوره في ازدهار عمله ونجاحه. لم ينكر سلامة صنيعه، بـل اعترف له بالخدمة الكبيرة التي قدمها لها. عندها سأله مساط مباشرة:

- تلك الليلة ، هل رأيت الرسام حقًا، أم كـان ذلـك حيلة منك لتحريك بضاعتك الكاسـدة فـي هـذه البلدة؟.

ابتسم سلامة محتفظًا بهدوء الرجـال النـاجحين فـي أعمالهم، وأجابه:

- وما هو الفرق ما دام أن كلا الأمرين يعود علـي بالفائدة نفسها؟!

وقدم لمسلط، في الحال، طبقًا من بليلة الرسام اعترافًا منه بجميل فعله، رغم شكله الخفي في نوايـاه وهدفـه مـن إشاعة الرواية.

على جدار بيت العمدة، وبالقرب من مركز العمودية، وجدوا مرسوم صورة إنسان يبكي بشدة وكأنه للتو دخل في خلاطة أخبار سيئة أصابته بانهيار مريع. دموعـه الغزيـرة ذات الشعب الأربع، تنهمر من عينيه وتهدد بابتلاعه. أشـار سلامة إلى أنه كان واقفًا بالضبط خلفه وعلى مسـافة أمتـار قليلة، عندما رآه يقف فجأة ويشرع في الرسم. بسبب الظلام، وبسبب عدم وقوفه في مكان مناسـب، قـال سـلامة أنـه لا يستطيع أن يصف لهم ملامحه. لكنه كان ذا طول واضح،

وتخلو قامته من مظهر الرجل البدين. يضـع علـى رأسـه شماغًا يلف طرفيه حول رقبته أو حول وجهة. ثم تذكر أنـه لا بد من إضافة أجزاء جديدة للقصة ما دام أن الجميع أتـى ليصدق المزيد، فتحدث عندئذٍ عن بقعة ضوء صغيرة كانـت تتحرك أينما تحركت يده على الجدار، ثم بعـد أن اكتملـت الصورة وتوقفت يده عن الحركة اختفـت. وقـال أن المـدة الزمنية التي قضاها في الرسم استغرقت دقائق قليلة ثم اختفى في الوقت الذي غادر فيه سلامة المكان بسرعة.

على الفور كلف العمدة عماله بطمس الصورة وإعادة مظهر جداره إلى شكله السابق. وتساءل في حنق:

- لماذا جداري أنا بالذات؟!

ولو افترض أحدهم أن العمدة في تلك اللحظـة، جـال بفكره بحثًا في ذاكرته عن أعداء يمكن أن يقوموا بهذا العمل، لكان افتراضه في محله. والواقع أن العمدة من النوع الـذي يستسلم بسهولة للوساوس والتخيلات الغريبة كلما وجد نفسه عرضة لأحداث من صنع الغير. سلط العمال على الصـورة ماكينة رش الألوان المملوءة بخلطة اللون الأبيض الخشـنة وغطوها بالخلطة مرة بعد مرة. ومر أسبوع وكل شيء على

ما يرام. ثم مر أسبوع ثانٍ وثالث دون أن يحـدث شـيء، وتوزع العمال بين يدي العمدة يمينًا ويسارا لقضاء حاجاتـه وخدمة مصالحه. وبعد انقضاء شهر، فتـرت قـوة اللـون الأبيض فصار تحت خف الشمس باهتًـا ومنكمشًـا كورقـة خس. ثم دفعته تصدعات رفيعة تفشت فيه إلى أن يماثل شيئًا فشيئًا حوض مياه جاف تغطيه أقراص الطين. تحات صـنيع العمال إلى الأرض، وطارت مع الريح جلدة اللون السـميكة فظهرت خلال نصف الشـهر الثـاني الخطـوط السـوداء للصورة. عاد الإنسان الباكي إلى الظهور على جـدار بيـت العمدة بدموعه الغزار وحزنه ووحدته الصلبة. عندئذٍ لم يعد ثمة شك عند مساط وجمع من الناس في أن الصـورة مـن عمل الرسام. فالصور الأخرى التي رسمها في أماكن عديدة، كانت أيضا تتمرد على جبروت الدهانات التي مورست عليها لطمسها وإخفاء بشاعتها عن العيـون، عيـون زوار البلـدة بالذات.

كثيرون من ذوي المراهقة الغضة المشوبة بالمبالغـة في حب الظهور، والحسد في الغالـب، رسـموا باليسـار، وباليمين، المئات من صور البشر على الجدران، مـرجحين

كفة الصدفة أو الحظ في الخروج إلى الناس ببرقـاب طـوال وأيدي غير مكررة، فيما لو نجحوا في إيقاف الرسـام علـى قرنيه خاسرا أهم لعبه على الإطـلاق لكـنهم لمـا أحسـوا بعجزهم المفرط إزاء ما ظنوه سحرا يدفنه الرسام في صوره لجعلها تستعصي على الطمس والإزالة، عرفـوا أنهـم لـم يزيدوا على أن جعلوا المدينة أكثر ازدحاما بصـور النـاس المعلقين على الجدران. أو "ناس الحيطان" كما علـق أحـد المحللين الاجتماعيين. وبدت لكثيرين منهم أنها أقـل أهميـة مما ظنوا. بل أن بعضهم قرر التوقف عن الرسـم لتخفيـف العبء على عمال البلدية. رسموا كل الناس، وبكافة الأطوال والأحوال والهيئات. رسموهم على معظم الحيطـان. علـى حيطان المسئولين الحكوميين، وحيطان التجار، وجدران فلل القضاة الضخمة ذات الهناقر العالية من كل الجهات، رسموا بشرا كثيرين في المدارس. على أبواب الحمامـات، وفـي داخل الفصول، وتحت العطفات السـفلية للـدرج. بـالفحم، وبالطباشير، وبأقلام الرصاص، وأقلام الحبر الجاف، وأحيانًا بأزاميل ملفقة، ثم لدى البعض، بعبوات الأصباغ اليدوية التي يطلقون عليها "البخاخات" صارت موضة. صـارت ميـدانًا

ذهنيا لدى الشباب الجائسين مجموعات بعد مجموعات في الشوارع وملاعب كرة القدم والمقاهي كل مساء. وكلما اجتمع رهط من مجموعة معينة في مكان، أتى على ذكر أمور مثل أفضل رسمة، وأبرزها للعيان، وأكبر الرسوم حجما، وأكثر الرسوم تعقيدا أو طرافةً. أو تحدث الرهط في أشياء مثل الرسم بالفحم، والرسم بالألوان الزيتية، والألوان الخشبية الجافة، والرسم بـ "البخاخات"، وأيها أفضل؟. يحدث ذلك، إلى جوار ملصقات الإعلانات التجارية. إلى جوار آراء جماهير الرياضة في أنديتها، وأسماء لاعبيها المفضلين. إلى جوار عبارات الحب، وأشعار الغزل، والتأسف على فوات الفرص، وإظهار آلام الهجر والفراق.

غير أن ذلك كله، بدا في نظر البادية، وباء يلتهم جمال البلدة العمراني، ويدمر اللمسات الفنية التي على جدرانها، واعتبره المحافظ سلوكًا مخجلاً لا يمكن أن يبدر ممن لديه إحساس بالمسئولية، بل إنه ينم، كما قال في اجتماع عام، عن تدنٍ مؤسف في الوعي بالمواطنة الحقيقية. أما علماء الاجتماع، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى جاءتهم تدب على قدميها ظاهرة الشخبطة على الجدران بإيعاز من الصحافة المحلية،

وعند ذاك، عدها من كان وقتها مهتما بالأمر، ظاهرة خطيرة تدل على نشوء مفاهيم وسلوكيات جديدة، كـان للتحـولات الاقتصادية وارتفاع مستوى الرفاهية فـي مرحلـة الطفـرة الغابرة، دور في صناعتها حيث تغيرت المفاهيم تجاه أشـياء كثيرة لها علاقة بواقع المجتمع ونمط عيشه ومستوى تفاعله وتأثره بالعالم الخارجي، ما أدى إلى تغير كبير في سلوكياته يصل أحيانًا إلى حد الغرابة. أخصائي نفساني متقاعد، أرجع أسباب المشكلة، وهو يحتسي قهوته في أحد مكاتب العقـار، إلى أن المجتمع رغم تطوره الملحوظ في العمران ونوعا ما الاقتصاد، بقيت شرائح عديدة منه تعيش في حقـول نفسـية مفتوحة على الآثار السلبية التي تصاحب، فـي العـادة أيـة مشاريع تنموية تحدث بوتائر سريعة في مجتمع بـدوي فـي معظمه، وأفضى بها ذلك إلى أن انطبعـت بطـابع انفعـالي سلبي قامع انعكس على تصرفاتها وطرائق تفكيرها.

وشنت الصحافة هجوما عنيفًا على المتسببين في تشويه البلدة وطالبت بمحاسبة المتورطين في السكوت على الفاعلين دون أن تسمي أحدا بعينه. أحد الصحف المحلية، تقدم رئيس تحريرها بمقال طويل بالصفحة الرئيسة، وهو الأمـر الـذي

يفعله للمرة الأولى، إذا كان يكتفي في كل عدد بمقال قصـير يتحدث فيه عن الحب وفنون العلاقات مع الآخر مبتعدا قـدر الإمكان عن التطرق في مقاله، إلى الأحداث السياسية الكبرى وهموم الشارع العربي. تقدم رئـيس تلـك الصـحيفة إلـى الواجهة بمقال يطاب فيـه الإسـراع بتكـوين لجنـة مـن المختصين لدراسة الظاهرة بتعمق واستخلاص النتائج التـي وضعت نظرة المجتمع للفن والجمال في هذا المأزق. وفـي أحد الأيام، حدثت بين صحيفتين محليتـين مشـادة صـحفية استمرت أسابيع عديدة، بسبب لقطة ظهرت في طبعة مسائية لإحدى تينك الصحيفتين بعد تغطية صحفية روتينية. كانـت اللقطة تتحدث عن مشهد عريض في جدار مملـوء بصـور أصناف كثيرة من البشر، اتخـذ بعضـها أشـكال أجسـاد مطروحة على الأرض، أما نائمة أو ميتة بالفعـل. وبعـض الصور تلفعت ملامح وجوهها بنظرات حائرة كتلك النظرات التي تلتقطها الصحف في العادة من عيـون مجموعـة مـن الشباب الجامعي، كلما عملت تحقيقًا ميدانيا عـن خريجـي الجامعات والبطالة. وفي المشهد أيضا، كـان ثمـة صـور بأشكال راقصة وابتسامات لاصقة مأخوذة من صور نجـوم

سينما عرب وأمريكيين. غير أن واحدة من تلك الصور التي ضمتها لقطة الكاميرا في تلك الصحيفة، كانت عبـارة عـن وجه دائري كبير غطيت مساحته الداخلية بصفحة اقتصـادية لعدد سابق من الصحيفة صاحبة اللقطة، وفي مكان العينـين ركبت صورتان لذئبين في حالتي عـواء. كانـت ملاحظـة الصحيفة المنافسة، وكانت مجرد مقالة صغيرة في صـفحتها الأخيرة، أن الصحيفة تلك تروج لنفسها عبر صور دعائيـة لها، على حساب الخبر والحقيقة.

وبغض النظر عما حدث من لغط ومشـاحنات وردود أفعال متباينة حول الظاهرة، يجزم بائع البليلة أن الكل متفق على أن آلاف الصور تلك، لم تسـتطع أن تمـس حضـور الرسوم القليلة التي وزعها الرسام على المدينة ولا أن تلغـي تعلق المارة بها. وليؤكد صحة كلامه، أشار إلى مـا فعلـه العمدة حينما أعاد إلى الرسمة رونقها بعد حـادث الطمـس الفاشلة ووضع حولها إطارا من الخشب ليراها المارة بالقرب من مركزه. وعلى الأرجح، لم يصل إلى البـائع أن العمـدة كان قد أعلن لبعض الصحفيين بعد أيام من الحادثة، أنه إنما فعل ذلك لأن الرسمة بسيطة ومعبرة وتصلح أن تكون موقفًا

منه ضد ما أطلق عليه " العبث المجنون على الجدران" الذي أخل بجمال البلدة وشوه صورتها أمام الغريـب. فلـو كـان سلامة الحواز ممن يقرأ مثل ذلك التصريح، لعلق الخبر على واجهة عربته تعبيرا عن فرحه بكلام العمدة وليستدل على أن رأيه هو أيضا كان صحيحا في الرسام. كان سيعلق الخبـر بالقرب من القدر، ليظهر التصريح المنشور واضحا للزبائن، وهو يغرف لهم المزيد من البليلة.

الأمر الذي لا شك فيه، بالنسبة إلى قائد الأشول، هـو أن العمدة، ليس إعجابا ولا تعلقًا بالرسمة، قرر الاهتمام بهـا بل كان السبب هو الخوف منها. كان يخشى أن تنتقل آثـار الرسمة الغريبة إلى بيته. ففي الداخل، قواعد فـيلاّ ضـخمة بنيت منذ وقت طويل على مقبرة كانت في طـور النشـوء، عندما سويت معالمها بالأرض وبيعت ضمن مخطـط كبيـر إلى الناس. وفي الداخل، امرأة تشكو مـن ضـاغط نفسـي يهاجمها عندما تخلد إلـى الراحـة. شـعور بالضـيق فـي القيلولات، وكوابيس شيطانية ونيران تشتعل تحـت أهـداب عينيها ليلاً تجعلها بحالة نفسية سيئة. وهو، بعد أن رأى بعينه أن الرسمة لم تفلح في طمسها ماكينة الرش، اختـار الحـل

الأسهل. أن يتركها على جداره بطريقة توحي بتعلقه بـالفن، وحبه للوحات الفنية حتى ولو كانت مجـرد عيـون تبكـي بإسراف. أرادها أن تبقى لائذة بالجدار من الخارج إلـى أن تواتيه الفرصة لهدم الجدار بكامله بهـدف توسـيع مكتـب الاستقبال وتطويره. أما بالنسبة إلى حافل، فلديـه معلومـة قديمة، غير أنها ليست ذات أهمية كبيرة إذ لا وجود لأدلـة على صدقها، وهى أن العمدة بنى بيته على أملاك أيتام عندما كان "شُريطيا" يبيع ويشتري في السيارات اليابانية قبل زواجه بسنين عديدة. لكن المهم هو أنه صدق أخيـرا، ألا علاقـة لحافل بالرسمة. هذا ما ردده حافل أمامه ذات عشية مؤكـدا أن وجود اسمه تحتها ليس جزءا من العمل بل أنه أضـيف إليه لاحقًا. والدليل على ذلك، هو أن اسمه زال تماما بعد أن أضيف إليه لاحقًا. والدليل على ذلك، هو أن اسمه زال تماما بعد أن استعمل العمال الرشة البيضاء لطمس الرسمة. وزال أيضا في الرسومات الأخرى بعد انبعاثها من تحت الدهانات.

أما الجهات الأمنية، فبعـد أن كلفـت بـالتحقيق فـي الموضوع، فإن أول عمل قامت به هو القبض علـى حافـل لكونه الشخص الوحيد الذي كان اسمه موجودا تحت عدد من

الصور المرسومة بالفحم بحسب تقرير أحد منسوبيها من قسم التحريات. في ذلك التقرير، أطلق على تلك الصـور اسـم "مجموعة حافل" وذكر مواقعها والتواريخ التي رسمت فيها، والمفاهيم الفكرية التي وشت بهـا. كمـا ذكـر التقريـر أن الأوقات التي يختارها للرسم، تحدث في مدد زمنية لا تقـل عن نصف السنة في معظم الأحيان بين كل وقـت وآخـر. ولاحظ، أن ذلك يحدث في الليل غالبا، وفـي أوقـات غيـر عادية، إما في وقت انقطاع عام للتيار الكهربائي أو خـلال جو مضطرب كوقت المطر والعجاج. وكتب التقريـر، أنـه يرسم بمادة سوداء أشبه بالفحم لا تزول من الجدران وغيـر قابلة للطمس. وهكذا وجد حافل نفسه مرة أخرى في غرفـة توقيف جديدة بعد مرور أقل من سنة علـى دخولـه غرفـة التوقيف الأولى. دخل الغرفة مساء أيضا، وحشرت له كمية كافية من العتمة، والصمت في بادئ الأمر. كانـت غرفتـه الأولى التي حجز فيها العام الماضي لا تبعد كثيرا عن غرفته الجديدة، وكان فيها مجموعة من الموقوفين أيضـا. ومـرت ساعة على انصرافه نحو وحدته الخاصة في غرفة مقفلـة، يفكر فيها بمخاص جديد. لكن الباب بعد ذلك فتح، واقتيد إلى

غرفة تحت الدور الأرضـي مجهـزة بوسـائل متواضـعة للجلوس والإضاءة.

بعد تحقيق مطول معه تطرقـوا فيـه إلـى عائلتـه ومدرسته وأصحابه وسبب تعلقه الشديد بالألعـاب الناريـة، أخذوه إلى الرسمة المعلقة على جدار فيلاّ ضـابط الشـرطة القريبة.. وجدوا أن طوله الذي لم يكن يتعدى مائـة وسـتين سنتيمترا، زائدا طول يده، يقلان عن ارتفـاع الـرأس فـي الشكل المرسوم بحوالي عشرين سنتيمترا. رغم ذلك، وضعوا في يده قلم فلوما ستر، وقالوا له ارسم نفس الرسمة، ووضع أحدهم يده على المكان الذي حددوه للرسم، وكان عن يمـين الرسمة الموجودة على الجدار. احتار من أين يبدأ ؟. هل يبدأ بالرأس، أم يبدأ بالقدمين؟!. لم يحدث أن قـال لـه إنسـان ارسمني على ورقة أو على جدار من قبل. بل إنه لم يسبق له أن رسم نفسه على كشكول الرسم الخاص بـه. مـا زالـت عفونة أقلام الرسم في أصابعه تتعتق، منذ أن قال له معلـم الحصة الفنية ارسم منظرا طبيعيا حدد فيـه لـون الشـجرة وشكل الشمس والجبل والحظيرة والكوخ والفلاح. لم يستطع

إكمال اللوحة حينذاك وطلب من المعلم أن يعفيه مـن رسـم العنصر الأخير ويقبل العمل كما هو.

ولاحظ حافل أن الشارع احتقن بنصف حلقة فضوليين يرصدون المشهد من بعيد. أصوات عمال، على ثرثرة باعة متجولين، على تعليقات مجموعة فتيان يسمع بحة أصـواتها تتهكم عليه. إنا لله، حرك لسانه الناشـف بـدون أن يحـرك رقبته. دهمه صوت أقربهم إليه، بالبدء في الرسم. قـال لـه آخر:

- ما بك؟ هل تنتظر منا أن نصفق لك أولاً ؟، هيـا أرنا كيف رسمت هذه "الشخابيط"؟

تذكر أن قرص الشمس دائري الشـكل مثـل الـرأس تقريبا لا بأس. بموهبته في رسم الشمس، والجبل، والشجرة، والبحر فالشمس دائرة، والجبل مثلث، والشجرة دائرة تسـتند على خط عمودي أو مائل. أما البحر فمجموعة من الخطوط الزرقاء المتوازية المتموجة مرة إلى أعلى ومرة إلى أسـفل. أو مثل أيدي الطلاب وهم يؤدون في فناء المدرسة التمارين الصباحية. تلك الأشكال الطبيعية البسيطة استطاع أن يـدرب يده على التعايش مع حركاتها الصاعدة والنازلـة والملتويـة

حول نفسها. لكن الإنسان، كيف يرسمه؟. أو بالأحرى، هـذه الرسمة التي طالما حدق فيها وافتتن بها رغم الألـم الـذي سببته له في السابق، ورغم الحصار الـذي تضـربه عليـه الآن؟. على أي حال، يمكنه الآن بضمير مرتاح أن يسـامح من فعلها وكتب اسمه تحت هذه الرسوم بالـذات. ولحسـن الحظ يبدو أن الرجل الذي يقف بالقرب منه اقتنـع بمنطقـه. لا يعقل أن تعود الرسمة إلى الظهور ولا يعود معها الاسـم الذي عليه اعتمدوا في قرار القبض عليه.

بيد مشدودة إلى أعلى ما تستطيع، ومرتعشة في نفـس الوقت بدأ بالرأس. مثل الشمس في السماء، رسـمه دائـرة كبيرة ثم أدخل فيها العينين بنفس الحركة. دائرتان صغيرتان، كل واحدة إلى جوار الأخرى فيخط مستقيم بالنصف العلـوي للدائرة الكبيرة. هكذا سيرسم الوجه علـى أي جـدار آخـر يطلبون منه أن يرسم وجها عليه. وإن أمروه أن يرسمه على الأرض، فسيرسمه بنفس الطريقة ليعلموا أنه الشكل الوحيـد الذي يقدر عليه. الوجه، مجموعة من الدوائر الصغيرة فـي دائرة واحدة كبيرة على الدوام. أمسك الذي يقف خلفه، بيـده ثم أنزلها إلى أسفل. كان يضحك الرجل. كان مـن خـلال

صوته، يحس حافل أنه ينظر إلى رهطه الـذي جـاء معـه ويضحك بصوت نخرته السجائر. ومما لا شك فيه أنه كـان غاضبا للغاية أو ربما وصل إلى حالة من الغلو في التفكيـر بتصرف عنيف تجاهه:

- هل تستهتر بنا يا كلب؟

سأله الرجل.

- أبدا، لم يخطر ذلك ببالي والله.

أجابه حافل بتصميم على رد التهمة التي يجـزم أنهـا خطيرة.

- إذًا، ارسم من جديد، هنـا، ارسـم هنـا، وإيـاك والتلاعب بنا.

قال له الرجل، ووضع يده مرة أخـرى فـي مكـان مجاور. اقسم له حافل أنه لا يعرف كيف يرسم شكل الإنسان بالطريقة التي ينتظرونها منه. لكن لو أنهم أمهلـوه بعـض الوقت لربما أستطاع أن يحاكي الرسمة بشـكل جيـد. فـي غرفة التحقيق، أكد لهم مرارا، أنه لـيس الشـخص الـذي يريدون. وفي كل مرة يقول لهم ذلك الكلام، كـانوا يـردون عليه في حزم بأن يأتيهم بذلك الشخص إن كان صادقًا. وفي

الميدان، أمام الرسمة، اكتشف أن الذي رسمها شخص طويل بالفعل. بل إنه يكاد يكون أطول شخص في البلدة. من الطبيعي أن يكون كذلك، وإلا فهل من المعقول أن يحضر معه رافعة ليزداد ارتفاع الرسمة على الجدار؟. سيستفيد ماذا؟! يقول سلامة بائع البليلة أن الرسام جاء بمفرده لكنه لم يذكر ما إذا كان أحضر معه سلما أو كرسيا طويل الأرجل لتضليل الناس بطوله الوهمي أم أنه اعتمادا على رجليه الطويلتين بالفعل قام بالعمل؟. ويذكر سلامة أيضا أنه لم يلبث طويلاً في مكانه، على حد ما يتذكره حافل من كلام البائع.

وهو هنا، لا شك في أنه يشعر، بين هؤلاء الرجال، بالخوف والاضطراب. وأسوأ ما في الأمر، هو أنهم كلفوه بما ظل زمنًا طويلاً، غير قادر على فعله حتى في المدرسة. أن يرسم بشرا. لكنه رغم خوفه، ورغم قلقه على مصيره، لم تمنعه لحظته الحرجة من أن يتمنى لو أنه يحقق بالفعل رغبتهم في إحضار من قام بهذا العمل. ليس ليخلوا سبيله رغم أهمية ذلك عنده، وإنما ليراه بعينيه. ليسأله عن معنى الضحكة القبيحة الواسعة في هذا الوجه الذي يرتفع فوق يده بمسافة. تلك الضحكة التي كأنها الآن انفرجت أكثر عن

سخرية كبيرة وشماتة أكبر لأنه عاجز عن محاكاتهـا فـي رسمة من صنع يده. ليسأله عن سـر التموجـات الطيفيـة الساحرة للجسم في كل رسم يتركها على جدار فـي البلـدة. لطالما تمنى أن يلتقي به لا ليعرف من هو، بل ليـتعلم منـه أشياء كثيرة يريد أن يعرفها بسرعة، إنه يطلبه أكثر مـنهم، وفي كل مكان، ومنذ وقت طويل. بيد أنه، كما اعترف ذات ليلة لأمه، فشل فشلاً ذريعا في تعقب أثره رغـم أنـه يكـاد لا يدع وقتًا يمر، إلا ويخرج فيه للبحث عنه والترصد لـه. لم تثنه تهكمات أصحابه عن المضي في انتظار "الشبح" كما كان مسلط يردد، كلما تحدثا في هذا الموضـوع. قـال لـه الرجل الذي يكاد يلتصق بظهره:

- حتى الآن، لا يوجد ما يؤكد عزمك على أن ترسم مثل هذه الرسمة. هل أنت متأكد من أنك تسـتعمل يدك اليمنى في الرسم؟

أجابه حافل مستغلاً سؤاله لإراحة يـده اليمنـى مـن وضعها معلقة فوق رأسه منذ أن بدأ الرسمة:

- أجل، أنا لا أستعمل في الكتابة والرسـم إلا اليـد اليمنى. علق رجل آخر يقف على مسافة منه:

- لا أصدق أنك لا تعرف كيـف ترسـم. تـدرس بالثانوية ولكنك لا تعرف كيف ترسم شكل إنسان. كيف نستوعب هذا الكلام؟
- قلت أني لا أعرف كيف أرسم مثل هذه الرسـمة، لكني أرسم أشياء أخرى.
- مثل ماذا؟
- مناظر طبيعية. واحة نخيل، أشجار سدر وأثـل، بحر، شمس، قمر. في العادة لا أرسـم إلا هـذه الأشياء.
- ألم يكن يوجد في المناظر الطبيعية التي رسـمتها في السابق، آدميون. فلاحون مثلاً، رعاة أغنام؟
- ذلك لم يحدث معي أبدا.
- لماذا لم تحاول أن تتعلم؟. هل هناك سبب معين؟
- لا يوجد سبب. فقط وجدت نفسي أني بليد في هذا الشيء.
- منذ متى تقريبا وجدت نفسك كذلك؟
- منذ الصف الخامس الابتدائي.
- وقبل ذلك؟

- قبل ذلك كنت أعبث فحسب، كما أتذكر.
- وهل تريد منا أن نصدقك؟

عندما تسأله أمه هذا السؤال، كان لا يجيب بـ ـ نعـم و لا بـ لا، بل كان يقول الأمر يعود إليك. أنا لا أطلب ممن يلقي مثل هذا السؤال أن يصدقني. لكنـي أصـر علـى أن يصدقني الآخرون الذين لا يسألون. لم يجب على سؤاله، بل استمر ينظر إليه بصمت. أعادوه إلى الغرفة وهـو يتسـاءل ماذا سيقرر آخذوه بشأنه؟. حوالي العاشرة مساء، وكان قـد أعد نفسه لمبيت موحش وخال من الراحة، أخذوه إلى مكتب كبير تحتل نصفه منضدة نصف دائرية يحف. بمقدمتها مـن الجانبين، مقاعد جلدية سوداء اللون، خلف المنضدة، يجلـس هادئاً، مستغرقًا في قراءة ورقة بين يديه، ضابط بدا من شعر لحيته ورأسه أنه متقدم في السن وعلى أحد المقاعد، أرخـى رجل بثياب مدنية يديه في حضنه. بعد أن التقت عيناه بعيني حافل، التفت إلى الضابط وقال له:

- نعم، أعرفه. هذا ولدي حافل.

(٦)

- بشرة يدك مشققة يا أمي، وراحة يدك خشنة، لمـاذا لا تستعملين الفازلين لترطيب البشرة؟

- موجود عندي، ولكني أنسى استعماله.

- ودواء السكر؟

- موجود أيضا.

- وتنسين استعماله أيضا؟!.

- لو نسيت أنا استعماله، ما نسي السكر استعمالي.

- بالصدفة وجدت مشطك، أمس، الذي فقد منك الشهر الماضي.

- صحيح؟ أين؟

- بين السرير، والجدار. هل تتذكرين يوم غيرنا وجهة السرير إلى الجهة الشرقية من الغرفة.

- نعم.

- لا بد أنه وقتها سقط في الفجوة التي بين السـرير والجدار وبقي منذ ذلك الوقت في مكانه.

تتذكر أنها بحثت عنه في كل مكان، إلا في ذلك الجزء المعتم الذي يقف فوقه السرير، ويحجب عنه النظر. كان من

عادتها، أن تضعه في درج الدولاب الصغير الـذي يكـون مباشرة أمامها عندما تكون على كرسيها، ويكـون السـرير على يمينها، بينما باب الغرفة ينتصب موصدا فـي الجهـة اليسرى. لكن عندما تغير موقع السرير، ارتبكت عادتها فـي وضع الأشياء في أماكنها وبقيت فترة من الوقت تنشئ ذاكرة جديدة لترتيب أشيائها الخاصة في الموقع الجديد. لكن ذلـك المشط بالذات، ما كان لها أن تضيعه بتلك الطريقـة. كـان عليها أن تحافظ عليه فـي موقـع لا تغفـل عنـه العـين ولا تخطئه. وردت عليه بصوت يبدو عليه أنها بذلت جهـدا لجعله هادئًا:

- عندي مشط آخر. لكن لماذا استحق ذلك المشـط اهتمامك إلى هذه الدرجة؟
- نعم، يا أمي. فوجئت أنه أخذ معه كمية كبيرة من شعر رأسك.
- وما هو الغريب في ذلك؟.
- يتساقط شعر رأسك بكثرة، كما لاحظت.
- نعم. وما زال.

- معظم الشعر كان يميل لونه إلى الأحمـر، وكـان قصير الطول وخشنًا.

هل حقًا، يتمتع ابنها بدقة الملاحظة إلى هذا الحـد؟!. تساءلت. إن كان ذلك صحيحا، فهل كان يخبث ومكر طـرح السؤال، أم كان على نيته لحظة أن سـأل؟. لا تسـتطيع أن تؤكد أي الجانبين كان الأقرب، لكنها أمام هـذه الملاحظـة المفاجئة لا تملك إلا أن تأخذ دور الذي يسأل هذه المرة؟:

- وهل ترى أنه لا يعجبك في أمك أن يكـون لـون شعر رأسها أحمر؟
- كان طويلاً وذا لون أسود. عندما كنت في بعـض الأماسي تدهنينه بالزيت، كنت أحدق فيـه أحيانًـا وأنا إلى جوارك أذاكر دروسي.
- وتظن أني أستعمل أصباغ الشعر كما يفعلن فتيات اليوم، وأني أستعمل اللون الأحمر بالذات؟.
- كنت أسأل لماذا أنقلب لونه إلى اللون الأحمر فقط.

الآن، على الأرجح، عرفت لماذا كلما رآها تكشف عن شعر رأسها لتلمه في المشط وتعيد تنظيمه، كان يهمهم بكلام غير واضح، ويكف عن الحركة أحيانًا تاركًا عينيـه علـى

حيث يكون المشط؟!.. عندما كانت تسأله عن السبب، كـان لا يجيب بشيء من الكلام الذي تحتاج سماعه. نعم تغير لون شعر رأسها إلى اللون الأحمر ولعل ذلك، كان سبب تصرفه الغريب تجاهه:

- اطمئن. لقد تغير لونه لأني أضع عليه شـيئًا مـن الحناء. رغم ذلك ها هو قصـير ولا ينفـع فيـه التمشيط.
- يقول بعض الناس أن مياه التحلية بها مواد كيماوية تؤثر على الشعر والبشرة.
- لا أدري يا ولدي. لكن هذا الماء الذي يأتي مـن البحر، يشرب منه الناس كلهم ويستحمون به منـذ سنين طويلة ولم أسمع أن أحدا اشتكى منه بقدر ما كان الناس يشتكون من انقطاعه أحيانًا.
- كان المشط من النوع الخشبي القديم ذي الأسـنان الصلبة الحادة.
- تعودت عليه في صغري، كانت أمي تمشط شعري به، وكنت أصيح من الألم حينما يمر على جلـدة رأسي، لكنها لم تبدله، بل استمرت في اسـتعماله

إلى أن ماتت. وعندما تفقدت أغراضها القليلة بعد وفاتها وجدت أن من أقربها إلى نفسي ذلك المشط فأبقيته لرأسي.

- عمره أكبر من عمري إذًا. لو كان أخًا لي لكـان الآن متزوجا وعنده أولاد.
- لطالما تمنيت أن يكون لك أخ أو أخت. لكن ذلـك أمر الله.
- وما هو السبب يا أمي؟
- لا أدري.
- هل كان القصور منك أم منه؟

لماذا يتحدث الآن في أمور مر عليها زمـن طويـل، وتجلب إثارتها من جديد الألم في الروح؟!. ورأت أنه تمادى في فضوله. هذا الولد الذي راحت تكتشف مجاهله في هـذا الليل الموشك على بلوغ منتصفه، لن يـدعها بمنـأى عـن الارتداد قسرا إلى حضن آلام مضت. رغم ذلـك. تـرى أن مجرد أن يعرف بما حدث، يلقي عنها ثقل الكتمان بحجة أنها أمور لا تعنيه. لم تكن تتصور أن يمر كل الوقت ولا يسـأل مثل هذا السؤال. كانت تؤمن أنه سيأتي وقت، يسأل فيه ابنها

لماذا وجد وحيدا ويقي على ذلك إلـى الآن؟ لا بـد، إذًا، أن تتهيأ لذلك السؤال بإجابة واضحة لا لبس فيها ولا مداورة:

- هو كان يقول لي أنني السبب إلى أن غضبت ذات يوم فطالبت بإجراء تحاليل طبية لي وله، لنعـرف أينا السبب إن كان هناك أسباب حقيقية بالفعل.
- وماذا كان جوابه؟
- في البداية تجاهل طلبي، لكني لم استسلم. ألححت عليه كثيرا وأبديت له رغبتي في حسم الموضوع بشكل نهائي، وكان وقتها يعيش معظم وقته وهـو يفكر في الزواج بأكثر من امـرأة لتكثيـر الأولاد والبنات كما كان يقول. فوافق على إجراء الفحص الطبي.
- وماذا حدث بعد ذلك؟.
- التحاليل الطبية التي أجريت لي لم تثبت ما كـان يخشاه مني. كنت سليمة تماما من العقم، ومشاكل الرحم الأخرى.
- وهل أجرى هو تحاليل لنفسه؟.

- قال لي في وقتها أنه أجرى اختبارات عديـدة وأن النتائج كانت إيجابية.
- لكنه منذ ثلاث سنوات وهو مع النصـرانية ولـم يحصل حمل. هل تظنين أنه كان يكذب عليك؟
- لم يعد الأمر يهمني الآن.
- لكنه الآن يفكر في تطليقك منه بجدية يـا أمـي. ألم تسمعيه وهو يقول بأنك شيء زائد في كرتون أو شيء من هذا القبيل؟. إنه يعني بذلك أن وقـت التخلص منك صار وشيكًا. وهذا ما يخيفني حقًـا. من كان يتوقع أن يحدث هذا الأمر وبهذا الشكل؟
- وهل تعتقد أنه سيطلقني بالفعل؟
- الذي أعرفه أن الطلاق صار شيئًا عاديا. مـا دام أننا صرنا نسمع أن البعض يتزوج ويطلـق فـي السنة أكثر من امرأة، حتى أصبح من عادة بعض الأغنياء والوجهاء، أن يحضر مأذونـه الشـرعي معه في كل مكان يذهب إليـه. مـن المؤكـد أن الطلاق سيصبح عندها شيئًا عاديا. لا أدري متـى

قرأت في إحدى الصحف أن نسبة الطـلاق فـي المجتمع مرتفعة بدرجة كبيرة.

- لئن طلقني بغير حق لأشكونه إلى المحكمة. لقـد التزمت الصمت عندما تزوج، وقلت لنفسـي هـو معذور، إذ ماذا سيستفيد من امرأة مثلي مشـلولة لا تنفع نفسها. لكن أن يطلقني بعد ذلك فهذا هـو الأمر الذي لن أسكت عليه أبدا.
- وأين ستعيشين لو طلقك؟.
- سأعيش معك..
- أحيانًا، أتمنى أن أكون تاجرا كبيرا، عندي أمـوال وبيوت لأسعدك.
- السعادة لا تأتي بالأموال والبيوت يا ولدي، ثم أنت الآن تسعدني كثيرا وأنت بالقرب مني. هذه هـي السعادة التي يمكن أن تقدمها لي.
- لن أفارقك.
- ليس لدي في ذلك شك.
- لكن أين سنعيش لو طلقك أنت، وطردني أنا؟

- لا تجعل هذا الأمر يشغلك الآن. لم يحدث شـيء بعد.
- هل سنعيش في الشارع يا أمي؟
- حافل، حبيبي، لماذا تعتقد أن ذلك سيحدث. قلـت لك لم يحدث شيء بعد.
- لكنى أعرف أنه سيحدث. منذ زمن طويل وأنا لدي إحساس بأنه لم يعد لديه رغبة في هـذا البيـت، ولا بمن فيه. لا أنت يريدك، ولا أنـا فكـر بـي بطريقة تشعرني أنني ابنه.
- أنت ابنه طبعا، يا ولدي، وهو لن يفرط فيك أبدا.
- لكني لا أشعر أنه أبي. هل تصدقيني إذا قلت لـك أني أحس بالعم قائد كأب أكثر منه؟.
- هذا من وساوس إبليس اللعين. دعنـا مـن هـذا الموضوع الآن، وقل لي لماذا لم تخبرني أنك كنت محجوزا عند الشرطة في الحبس؟ ولماذا كـذبت علي وقلت بأنك مع مسلط؟
- أمي، خشيت أن تتأثري بالخبر أو تغضبي منـي لأني دخلت الحبس كما تصفين غرفـة التوقيـف.

لكني كنت قبل أن يـدخل أبـي أتهيـأ لإخبـارك بالحقيقة. هل آتي بالفازلين لأدهن يديك؟

- ها هو في جيب الكرسي. لكن لا تتعـب نفسـك، أستطيع الاهتمام بحالي في مثل هذه الأمور.
- لقد وجدته. ووجدت كرتونة أخرى معه.. لكنهـا فارغة على أي حال. ربما هي كرتونته.
- الفازلين نشتريه بدون كرتونة من البقالات. لا بـد أنها كرتونة دواء السكر. دعني أراها.
- ها هي.
- لا . ليست كرتونة دواء السكر. لا أتذكر ما كـان بداخلها. تخلص منها. هناك الكثير مـن الأشـياء بالبيت أصبحت زائدة وينبغي أن نتخلص منها.
- مثل ماذا يا أمي.. أوه، يدك ناشفة جدا حتى علـى الفازلين. لو ثنيتها لربما نز الدم من الرسغ. المهم، أخبريني يا أمي، مثل ماذا تلـك الأشـياء التـي أصبحت زائدة بالبيت وينبغي أن نتخلص منها؟
- كثيرة يا ولدي، إنها أشياء يحتاج فرزها إلى يـوم كامل على الأرجح.

- لست على عجلة من أمري. أستطيع أن أنتظر ذلك اليوم إلى جوارك. لكن هل يمكن لي أن أعرفها؟
- غرفة النوم أول هذه الأشياء، وملابسي القديمـة، وأحذيتي جميعها باستثناء الصندلين. أيضا لم أعد بحاجة إلى معظم الحقائب وعلى الزينة والماكياج، وفي المطبخ يوجد الكثير من الصحون والأكـواب والأواني التي لا أحتاجها. وأشياء كثيـرة أخـرى كما قلت لك.
- وهل هذا معقول يا أمي؟.. هل تريدين أن تسكني في بيت خاوٍ لا يوجد به شـيء مـن المتـاع؟. لو عرف بعض نساء الحارة بنيتك هذه، لتودد إليك ولجاء إليك مرة بعد مرة يتبارى في كسب ودك.
- منذ أن لزمت هذا الكرسي، صار سهلاً أن أقتنـع بأني أعيش في بيت كبير علي. بيـت أغراضـه كثيرة إلى درجة أنها تحولت إلى هم يثقل قلبـي. في المطبخ مثلاً، يوجد الكثير من الأوانـي التـي لا أستعملها على الإطلاق. أحيانًا، عنـدما تعيـد

ترتيبها الخادمة أو تقوم بتنظيفها من الغبار تحدث أصواتًا مزعجة تجعلني لا أطيق البقاء في البيت.

- ولكنها نفس الأغراض التي اشـتريتها ذات يـوم، وكانت تحدث نفس الضوضاء والصخب.
- هذا صحيح، ولكن كان ذلك في المناسـبات. فـي ذلك الزمن، كانت لا أدع أحدا سواي يهتم بها على الإطلاق، كنت أوضبها للأكل، وأغسلها، وأرتبها، وأنفض عنها الغبار، والذي ينكسر منها أبدله فـي الحال.
- وكنت تستمتعين بأصواتها أثناء غسلها، وترتيبها. أليس كذلك؟.
- بلى ، وما كنت أرتاح حتى أراها كلها في أماكنها نظيفة ومرتبة.
- أعطيني يدك الثانية. الفازلين هذا ليس من النـوع الأصلي يا أمي. نوعية مقلدة وأثرها سطحي على الجلد. من الذي اشتراه لك؟.
- أنت.

- حقًا؟. لا بد أني كنت لحظتها مشغول البال. الغشاش مرشد لا يكف عن تصريف بضاعته المغشوشة حتى يرمى به في السجن. سأعيد له هذه العلبة وأبصق على لحيته المنتوفة. تصوري، وجدوا عنده قبل أسبوعين علب سردين منتهية تواريخ صلاحيتها من ثلاث شهور. أقفلوا المحل أسبوعا كاملاً ودفعوه غرامة مالية لكنه عاد إلى الغش.
- ليست من عند بقالة مرشد. لقد أحضرتها مع دواء السكر من الصيدلية. صيدلية الوفاء. هل نسيت؟!.
- هذه العلبة من صيدلية الوفاء؟! كيف حدث ذلك؟! لا بد أنهم ضحكوا علي فهم هؤلاء المندوبون الذين يتجولون بين المحلات كالدود لبيع بضائعهم وتسويقها. ما علينا يا أمي. سأعوضك علبة أصلية يوم غد.
- يوم غد، موعد المقابلة مع المعهد المهني. أليس كذلك؟
- نعم، تذكرت، كدت أنسى .

- لقد أصبحت كثير النسيان؟
- يبدو أنها مشكلة جديدة يا أمـي أصـابتني، لكـن لا بأس سأعالجها بطريقتي. هنـاك الكثيـر مـن المشاكل لا نحتاج إلى البحث لها عن حل سـوى عن حل واحد هو أن نتجاهلها. وسـوف أتجاهـل بطريقتي هذه المشكلة، مشكلة النسيان. أمي، خاتم يدك منطبق تماما علـى البنصـر ولا أسـتطيع تحريكه لتطريب الإصبع بالكامل.
- نعم. ذلك لأني منذ أن لبسته لم أخلعه.
- هل هو أيضا أحد الأغراض التي تركتها جـدتي، رحمها الله لك؟
- بل جاءني من عمتي هدية بمناسبة زواجي. رحمها الله كنت أحبها كثيرا وكانت هي تبـادلني نفـس المشاعر. وقد حزنت كثيرا عنـدما لـم تسـتطع حضور زواجي فاضطرت إلى أن ترسـل هـذا الخاتم لي ومنذ ذلك الوقت لم أنزعه من إصبعي.
- من الفضة كما يبدو.
- أجل ، من الفضة وفصه من العقيق الرماني.

- لا أعرف في هذه الأشياء. هل هـو مـن النـوع الجيد؟
- تقول عمتي أنه قص مصنع باليـد. جاءهـا مـن صنعاء في مقبض خنجر أثري قديم اشتراه جـدنا من أحد التجار في صنعاء. توصـيني عمتـي أن أطيل النظر فيه كلما تنغص خـاطري أو تعكـر مزاجي. لونه جذاب يريح العين، وبريقـه يسـر الخاطر ويبعث علي البهجة كما قالت.
- لكني لا أري له بريقًا، ولا جاذبية.
- أنظر إليه في نور النهار وليس الآن فـي الظـلام يا فطن. ربما ذات يوم، تلبسه وترى بنفسك لونـه وبريقه ولكن ليس الآن، بل عندما أمـوت. هـل سمعتني.؟
- عمرك طويل إن شاء الله يا أمي، بل هو لك وأنـا أحب أن أراه في يدك لأنه فيها أجمل.
- هذا الخاتم يجب أن يبقى في العائلة، فهـو خـاتم أصيل وذكراه يجب أن تدوم معنا يدا عن يد.

- تعنين أنه من الأشياء الهامة في البيت، وليس من الأشياء الزائدة التي تريدين التخلص منها؟
- بلا شك. أليس جميلاً أن يحتفظ الإنسان بمثل هذه الأشياء التي تأتيه على شكل هدايا أو على شـكل ذكرى جميلة لأناس كانوا وهـم أحيـاء يحبونـه ويتمنون له الخير والسعادة؟
- بلى، يا أمي.
- عندما أهديك شـيئًا جمـيلاً مثـل هـذا الخـاتم، ألا تحتفظ به لنفسك وتضن به على الآخرين؟
- بلى ، هذا مؤكد.
- وأنا أيضا أؤمن بذلك.. بينما تلك الأشياء التي تملأ البيت وأنا لا أحتاجها الآن ولا مستقبلاً، ليست لها نفس القيمة ولا نفس المحبة. كما أني أكتفي منهـا بالقليل في الوقت الحاضر، وكلما تخفف الإنسـان مما لا يحتاج ، وجد نفسه أكثـر راحـة، ووجـد المكان أوسع وأقل ضوضاء.
- ربما هذا هو منطق أبي أيضا.
- خذني إلى غرفتي، لأريك بعض الأشياء.

- ولكن، لحظة.. يا أمي لم أبدأ بقدميك بعد.
- في وقت آخر إن كنت مصرا على ذلـك.. هيـا معي.

واضطر إلى النهوض بسرعة، بعد إذ بـدأت بالفعـل تحرك العجلات لتوجيه الكرسي نحو الممـر المـؤدي إلـى غرفتها، واستلم دفة القيادة ، وشعر بخدر الجلوس الطويـل يغمر قدميه، وضربات الدم المتصاعدة، أحس بها تصل إلى رأسه أسرع من المعتاد، فشعر بدوار خفيف في الرأس. كان عليه بيجامة خضراء اللون مخططة طوليا بـالأبيض وذات كمين قصيرين. رأسه المكشوفة، ما تزال أجزاء منها رطبـة وتعج برائحة الشامبو. ورغم تنامي فضوله في رؤية الأشياء التي فجأة استولى على أمه حماس ظاهر لتطلعه عليها، فكر في طريقة تعاملها الجديدة والغريبة مـع أغـراض البيـت ومتاعه، هل كان بسبب شعورها بقرب انتهاء علاقتها بأبيه، ولذلك تريد أن تتخلص من تلك الأشياء بسرعة قبل أن يأتي وقت لا تستطيع فيه التصرف بها، أم هل كان ذلـك بسـبب عجزها العضوي عن الاهتمام بها وترتيبها كما من قبـل؟!. كلا الحالين سيئ بالنسبة إليها، ومع ذلك فقد بدت مرتاحة في

الحالين سيئ بالنسبة إليها، ومع ذلك فقد بدت مرتاحـة فـي الحديث عنها وعن نفسها. لو حسب حافل كمية أواني المطبخ التي يمكن أن تندرج ضمن الفائض عن حاجـة أمـه كمـا تتصور، لانتهى إلى نتيجة شبه مؤكدة هي أن المطبخ سيغدو فارغًا إلا من رفوفه وبعض العلائق البسيطة التي تسـتعملها لحاجاتها اليومية كالكوب وإبريـق الشـاي وأدوات الطـبخ القليلة. بل أكثر من ذلك، سيغدو البيت فارغًا إذا ما أضـيفت إلى القائمة، غرفة نومها وملابسها وبقية أغراضها الأخـرى وطوحت بها إلى الخارج. وتوقع حافل أن ما سوف يراه من أشياء بعد لحظة، إن هو إلا من هذا القبيل علـى الأغلـب. لكنها بالرغم من ذلك بدت مرتاحة، بـل وتشـعر بابتهـاج وغبطة وهي تتحدث معه عنها.

- اجلس هنا.
- ما بكِ أخرجت كل أغراضك الخاصة من أدراجها يا أمي؟ هل تنوين التخلص منها أيضا؟
- وما حاجتي بها الآن؟
- كل هذه لست بحاجة إليها؟

- انظر، هذا العطر نال إعجـاب صـديقتي فيحـاء فنويت أن يكون لها. تقول أن ماركتـه لا توجـد بالسوق. وقالت أن زوجها مولع بماركات العطور القديمة وخصوصا هذا العطر. أما طقم التجميـل هذا فقد اشتريته بالغلط من الأسـاس لـذلك لـم أستعمله وربما يليق بصـاحبة الكـوافير، حصـة المويلح.
- مهلاً، مهلاً، لا بد أن هذه الأشـياء كلفتـك مـالاً كثيرا، وتريدين أن تبـدديها علـى النسـاء هنـا وهناك؟!. إنها أشياء تخصك وتخص البيت، ولـو تبددت بهذا الشكل لذهب الكثير مما يخصنا في هذا البيت يا أمي.
- إنها تخصني وحدي. وحدي فقط. لم يدفع أبـوك فيها ريالاً واحدا كما أنها لا تخصك أنت أيضـا. كل ما في هذا البيت من فلوسي أنا.

جنت أمي. قال لنفسه وهو ينقل بصره بين مقتنياتهـا المبثوثة على أرضية الغرفة وفوق المنضدة الصغيرة لصـق السرير. لم يجلس بعد، أما هي، فافترشت بمساعدته موكيت

الأرضية مستندة على السرير، وبين يديها الأغراض، تجمعها إليها تارة، وتعيد تارة أخرى توزيعها من جديد على الفراش. يعتقد حافل أنها المرة الثالثة أو الرابعة تقريبا التي يرى فيها شعر رأس أمه الأحمر المتقبض كلـه. كانـت لمـا قعـدت بمشقة،انحل غطاء الرأس وتراجع إلى مستوى كتفيها فأبقتـه على حاله. رغم ذلك، مست حافل شدة التغير التي أصـابت شعر رأسها. جعلت أطراف الشعر القصيرة المنعقد بعضـها على بعض، يشعر أنه هو أيضا تغير دون أن يدري، تغيـر من ولد حدث السن، يقلب صفحات كتبه المدرسية بجوار أمه ولا شيء آخر يهمه في الدنيا، إلى شاب في طلائع العشرين كل ما يخشاه، هو أن ينفجر بسرعة انفجار صاروخ في اليد. وهي المرة الأولى التي يرى فيها أحد دواليب غرفة نوم أمه مفتوحا على آخره بينما محتوياته مطروحـة علـى الأرض بشكل فوضوي. لم يسلم مـن ذلـك إلا الحقائـب الكبيـرة الموضوعة فوق الدولاب بلونها الشاحب بسبب الغبار وقلـة الاستعمال. بدا عاجزا عن فعل شيء لإقناع أمه بالعدول عن رأيها. حتى القدرة على الكلام، شعر أنها تخونه أو أن تفكيره تشتت فذهل عما يريد أن يقول. معها حق، قال لنفسه، فهـي

صاحبة الشأن في التصرف بهذه الموجودات لأنها تخصـها، وفي نفس الوقت، تساءل، ألا يحق لي أن أتصرف أنا أيضـا بما يمليه ضميري تجاه كل ما له علاقة بالعائلـة فـي هـذا البيت؟. رفضت أن تمنحه شيئًا منها عندما طلب أن تسمح له بحفظها في أماكنها على أن تكون له. قالت أن ما جاء عـن طريقي يذهب عن طريقي، وإذاك لـم يجـد بـدا مـن أن يصارحها بأن ما تفعله إنما هو ناتج عن شعور بالخوف من وقوع الطلاق وينتهي كل شيء. أو الخوف من شـيء لـم يحدث بعد كما قالت في الصالة:

- ألم تقولي قبل قليل أنه لم يحدث شيء بعد؟
- بلى، ولكن ليس لهذا علاقة بذاك؟
- بل له علاقة مؤكدة يا أمي، تخـافين أن يصـبح الطلاق أمرا واقعا غدا أو بعد غد وتكـوني قـد خسرت البيت وما فيه. ولذلك تريدين أن تخرجي من البيت وهو فارغ تماما.
- حقًا؟
- هكذا أتصور. بل أنا متأكد مما أقول.

- وعلى افتراض أن كلامك في محله، فلماذا رفضت أن أعطيها لك أنت؟
- لا أدري.
- من الأفضل أن تدري. لأنك ، فـي الواقـع، لـم تطلبها لنفسك، بل طلبتها من أجلي. من أجـل أن تبقى في البيت كما هي الآن لتكون لي. حسنًا، في دولاب الملابس فساتين حفلات جديدة تريـدها أن تكون لي. يوجد بلوزات وتنانير لسهرات لم تحدث أبدا تريدها الآن أن تكون لـي. بـل تريـدني أن أستعمل لتسريح شعري آلة تصفيف الشـعر هـذه التي لم أسمع لها صوتًا من عامين ونيف. ومـاذا بعد تريدني أن أفعل؟!. أنت تطلـب منـي تلـك الفساتين والتنانير والبلوزات والأحذية لتكون لـك كما تقول. ماذا ستفعل بها؟!. لتلبسها؟!. لتعطيهـا زوجتك مثلاً ؟! لتمر عليها كل يوم وتتمسح بهـا بعد أن تتأكد أنها في حالة جيدة.؟! فكر جيدا. لـم تعد تصلح لي هذه الأشياء، كما ليس من أحد آخر بالبيت يمكن أن يأخذها لنفسه، فماذا تطلق عليهـا

في هذه الحالة؟!. تحف أثرية؟!. بل هـي أشـياء زائدة عن الحاجة ويجب أن نبحث عمن يحتاجهـا من أهل الحي أو في الجمعيات الخيرية. صـدقة عن أمي وأبي.. تكافل اجتماعي.. عمل خيـري.. أيا تكن المسميات، لا بد من التخلص منهـا. أمـا أبوك، فليس له علاقة بالموضوع، لا من قريـب، ولا من بعيد.

- حسنًا، كما تشائين يا أمي. لا تغضبي. ما دام أنك مصرة على التخلص منها بتلك الطريقة فـاتركي الأمر لي، وسوف أفعل ما يسر خاطرك.

فتح دولاب الملابس على مصراعيه. فجأة، انتصـبت أمامه أمه الشابة ذات اللحم الخفيف والقـد المعتـدل. فـي مجموعة من الفساتين الطويلة ذات الخامة المؤلفة من القطن والبوليستر أو من الصوف بالكامل. في الثلاثين من العمـر، عليها عباءة سوداء ضافية، تدقق فـي مقاسـات الفسـاتين وتتفحص باهتمام شديد نوعية القماش ولونه. ومن فستان إلى آخر، تساوم في الثمن وتبدي الملاحظات على السـلعة فـي مناورة تقليدية لاختراق القيمة لصالحها. ثم في مكان آخـر،

وزمن آخر، بدأت أمام صف البلايز والتنازير في سن أصغر وتجربه مختلفة. ليس خبيرا حافل في ملابس النسـاء، لكنـه يسمع أن المراكز التجارية الشعبية التي تتاجر بها كانت قليلة في ذلك الوقت ومع ذلك تدرك جيدا ماذا تريد المرأة، وفـي نفس الوقت كانت تسمح بالمساومة ما أن ترى الزبون يدخل بجدية في نية الشراء. هل كانت في أقل مـن عمـره الآن، حينما اتجهت ذات مساء على الأرجح إلى أحد تلك المراكـز مندفعة بحب الموضة إلى قسم البلايز والتناير ولفـت هـذه المجموعة في فاتورة واحدة؟!. لا يعرف الجواب، لكنه يسأل فحسب. وبالطبع، لن يسألها، لإحساسه بأن الصمت في هـذا الشأن هو الشيء المناسب الذي عليه القيام به. فـي الـركن الأيسر للدولاب، ظهرت ثيابها التي تسـتعملها فـي الوقـت الحاضر، وهي بشكل عام ذات ألوان فاتحة وأطوال سـابغة لا تفسح مجالاً لفضولي مثله في طرح فرضـيات خاطئـة. أزمان متعددة وملونة محبوسة في النسيج الذي توقف بدوره عن الحركة، وانغلقت عليه أبواب الدولاب. معها حق، همس حافل، معها حق في التصرف بثيابها كما تريد. نعم، صـار

محالاً بالنسبة لها أن تلبسها مرة ثانية، كما هو محال أن تعود شابة في الثلاثين.

ألقى نظرة خاطفة على أشيائها المبعثرة بين يديها فرآها كما هي على الأرض دون أن ينقص منها شيء. وحدها قارورة العطر التي قالت أنها تصلح لفيحاء ارتفعت إلى حافة السرير بعدما كانت على الموكيت. وتساءل من هي فيحاء؟!. امرأة من؟! هل يوجد بالحارة امرأة اسمها فيحاء؟. أو لعلها فيحانة الزوميلة، تلك المرأة المجنونة التي طردها زوجها منذ أكثر من ست سنوات فصارت تعيش عند أخيها وتنام على أعصابه. تناول الصف الأول من الثياب ووضعه على الأرض ليبدأ في ترتيبه داخل كرتون فارغ أعدته للمهمة. وراح يتصور على أي حال تؤول الأمور، لفيحاء العطور، ولحصة أطقم المستحضرات التجميلية، ولبقية نساء الحارة الملابس وربما كانت زينب معهن، وصيته أخت مسلط، وأمه العرجاء وأخريات لا يعرفهن. أطقم صحون الخزف، للأرملة مرسى بدون شك حيث يعتقد حافل أنها في رأس القائمة لعلمه بأن أمه تخصص لها كل يوم جمعة طبقًا من الكبسة باللحم مع بعض الفاكهة. القدور الكبيرة

والصحون التي أعدت للأكل الجماعي افترض حافل أن أمه ستهبها لعائلة المؤذن المريض المعدم، لإحداث الضجيج في بيته فحسب. الأباريق، والأكواب الكثيرة، لحفلات أعياد الفطر عند المختارية الموريتانيين شرقي الشارع العام. وماذا بعد؟!. تعثرت مخيلة حافل في توزيع بقية الأواني فعجز عن تذكر الأسماء التي بأهلها حاجة لتطعيم مطابخهم بأواني من مطبخ السيدة سجود. غدا، تصبح على كل مدخل لأية حكاية تتحدث عن عجائب العالم. امرأة استبقت الأجل، وتحركت فيها وصية غريبة بتوزيع محتويات بيتها على الحريم في الحارة، وهى لما تزال على قيد الحياة. قهقه من الداخل، وتمنى في تلك اللحظة لو أنه بالخارج، منهمك في إعداد مقدار كبير من الصواريخ لإطلاقها في الفضاء. بل إنه، وليس يدري كيف حدث ذلك، تمنى لو أن في يده سيجارة حمراء الرأس يشفط منها القطران. عندما يتحرك في البيت مساء غد أو بعد غد يتوقع أن تحدث خطواته على أرضية البيت دويا غريبا أشبه ما يكون بدوي خطوات الغوريللا كينغ كونغ بوندي في أفلام الكرتون، حيث سيكون البيت بلا متاع.

انتبه إلى أنه يسخر من أمه، ومن رغبتها في الصدقة، استغفر الله. غير أن ذلك لم يحجب عن كبـده لذعـة مـن الحسرة على متاع البيت الذي سيزول من الوجود في وقـت وجيز. نساء الحي لا يفهمن القصة عندما تتحدث امرأة منهن عن المشاولة التي أخرجت أواني مطبخها في كراتين للناس، ماذا يا ترى، سيكون عليه مدار حديثهن في هذا الموضوع؟. سيتندرن بالتأكيد على قلة عقلها إن لم يصـمنها بـالجنون. سيتحدثن بكثير من الحرص على إثارة الانتباه، عن المرات العديدة التي ذهبن فيها إلى الأسواق لتكميل مطابخهن بكـل جديد. ثم برءوس ملتوية وأكتاف تتحرك اسـتغرابا أعلـى، سيجدن المفارقة غريبة وغير قابلة لأي تفسير منطقـي، وإذا ما كانت فيحاء تلك بينهن، عندئذ ستقول أنها للأسف لم تظفر منها إلا بقارورة عطر ذات ماركة قديمة وغيـر موجـودة بالأسواق اليوم، خزين غير مرغوب فيه يعنـي!. ويـزداد الأمر سوءا، كلما كان جمع النسـاء خليطـًا مـن أرامـل وعزباوات بدويات يائسات، حيث ستذكر إحداهن الأخريـات بما فعلته الحضرمية "المحرولة" ، بـ ـ "قرابـع" مطبخهـا، وبـ "خلقانها" التي لا تأكلها النيران. كان أول ما سمع كلمـة

"محرولة" من أم مسلط، حيث سألته عن أمه وعن أحوالها ثم تمنت لو أن أمه أطاعتها فتداوت بتركيبة علاجية كانت قـد استجلبتها من خبيرة في الطب الشعبي بالشمال، ثـم سـاقت قصة عن امرأة "محرولة" منذ عشرين سـنة، تعافـت بعـد أربعين ليلة من استعمال العلاج. عندما سأل حافل صـديقه مسلط عن معنى كلمة "محرولة" قـال إنهـا تعنـي المـرأة المشلولة، أي مثل أمك:

- أمي، من هي فيحاء هذه؟!.
- امرأة، رأيتها لمرة واحدة هنا، في هذا البيت.
- لمرة واحدة، واعتبرتها صديقتك؟!.
- لم تجلس سوى ساعة واحدة، لكنها كانـت بعمـر طويل. أحببتها كثيرا واعتبرتها صديقتي نعم.
- لماذا لم تكرر زيارتها لك ما دام أنها بهذا القـدر من الإعزاز؟
- ليتها هنا، لتعلم جاراتي أن لي صديقة بالدنيا كلها.
- ومن أين هي؟.. من مكة؟
- بل من مدينة الطائف. وكانت قد جاءت للحج العام الماضي ومكثت هنا اليوم السادس واليوم السـابع

عند إحدى قريباتها قبل أن تقضي يـوم الترويـة بمنى. في اليوم السابع زارتني قريبتهـا وكانـت معها، ولست أتذكر من منا جاء بسيرة الـورود؟ عندها تحدثت عن مزارع الورد بالطائف. قالت أن منطقة زوجها، بلاد الشفا، المعلقة في أعالي جبال السروات، تحتشي بمزارع الورد. وأسـهبت فـي ذكره. قالت إن الورد في الصباح الباكر يكون لـه بريق زهري جذاب ما أن يراه الغريب العابر حتى يطمئن وتنتعش روحه. ليس ذلك فقط، بل يمـنح لونه كل ما يعبر المكان من طيور ونحل وضباب حتى.

- كل هذا قالته تلك المرأة؟
- بل قالت أكثر من ذلك قالت أنها تسرح مع زوجها في وقت مبكر جدا لهدفين مختلفين. هـو يـذهب لبدء قطاف الـورود قبـل شـروق الشـمس لأن الحرارة تفقدها نضارتها، وهى لاغتنام الفرصـة قبل القطاف للمشي بين شجيراتها والتمتـع بشـم روائحها المختلطـة بـالهواء والنـدى والأوراق

والحشرات. وغالبا ما تنتبذ مكانًا بعيدا عن العمال، لقطف الورود الخاصة بها، وجمعها فـي أوانـي خاصة. تقول أنها تمتلك في بيتها مقطـع تقطيـر صغير للاستعمال الشخصي.

- مقطع تقطير؟!. يعني ماذا؟
- تقول أنها أواني نحاسية كبيرة مجهـزة بطريقـة معينة لتصنيع دهن الورد. لا أدري فـي الحقيقـة ماذا تقصد بكلامها لأني لم يسبق لي أن شـاهدت هذه الأواني. لكنها تشرح لي طريقة التقطير بشكل مبسط للغاية. تقول أن كـل جهـاز تقطيـر فـي المصانع الكبيرة، يتسع على الأقل لعشرين ألـف وردة تخلط بمقادير محدودة من المياه ثـم تُغلـى لساعات في تلك الأواني إلى أن تبلغ درجة حرارة عالية تصل إلى ٢٠٠ درجة مئوية.
- عشرون ألف وردة؟!. كيف أحصوها؟!. حبذا لـو أعرف. بل كيف جمعوها من رءوس الأشجار؟!. لا بد أن ذلك استغرق وقتًا طويلاً. تخيلي يا أمي، وهم يقطفون الورد، يقولون واحدة ، اثنتان، ثلاث

، أربع، أليس ذلك طريفًا؟ وهكذا من الصباح حتى المساء!.

- بل كان ينتهي القطاف قبل شروق الشمس ليبقـى الورد محتفظًا بطراوته، كما قالت.
- لكن، يا أمي، أريد أن أفهم، ما دام أن فيحاء هـذه لديها مصنع تقطير وتنتج ما يكفيهـا مـن دهـن الورد، فلماذا تطلب منك قارورة العطر هذه؟
- لا أدري، لكنها أثارت إعجابها، ولم يكن أقل مـن أن أنوي إهداءها لها في ذلك الوقت.
- كان الأولى بكِ أن تطلبي منها العطر لا أن تقدميه لها. هذه امرأة لا بد أنها غنية جدا.
- لقد كانت جلسة لا تنسى. اسـتفدت منهـا كثيـرا وخصوصا عن الورد. هل تصـدق أنهـا رغـم بلوغها منتصف العمر، كانت بنضـارة الـوردة، تأثيرها على المستمع بكلامها وقـوة حضـورها ورقة أحاسيسها، كان لا يقاوم. تقول لي أن أجود الورد بالطائف يسمى الجوري، وما أرها إلا مـن هذا الورد.

- نعم ، نعم، الشفا مكان جميل للغاية، والورد فيـه لا بد أن يكون كذلك، وأيضا النساء لا بد أن يكن جميلات رقيقات مثل فيحاء. أنا زرت الشفا أكثـر من عشرين مرة وما زلت أتمني زيارته، لكنه في وضعه الحالي غير مكتمل من ناحيـة سـياحية، لا فنادق، على مستوى، ولا حتـى نظافـة فـي متنزهاته. الأسعار غالية جدا لمن يريـد الإقامـة حتى ولو في خيمة واحـدة. لكـن فيحـاء هـذه بصراحة يا أمي فاتت عليك. كان من المفـروض أن تقوي علاقتك بها لتملأ بيتنا بعطر أوانيها على الأقل. أنا سمعت أن التولة من دهن الورد الصافي تباع بآلاف الريالات، وهو عادة ما يـذهب إلـى الأمراء وشيوخ الخليج، فلو أنك طلبت منها تولـة واحدة لكان أفضل من أن تمنحيها قارورة عطـر لا تقدم ولا تؤخر أمام بضاعتها. عنـدي فكـرى رائعة.
- ما هي؟

- بدل أن نضيع جهدنا في توزيع أوانـي مطبخـك على فلانة وعلانة من نسـاء الحـي البخـيلات المقترات على أنفسـهن، مـا رأيـك أن نصـفها وننظفها ونلمعها ونرتبها في أوعيـة نظيفـة ثـم نقدمها لفيحاء هدية عندما تأتي لزيارتك في المرة القادمة. متى ستزورك يا أمي؟
- لم أسألها في ذلك الوقت، لكني أعلم الآن أنها لـن تزورني على الإطلاق. وهذا ما يجعلني حزينة.
- لن تزورك؟! لماذا؟.
- توفيت قبل شهرين في مزرعة زوجهـا. لـدغتها حية من الجبال فماتت على الفور.
- ماتت؟!! لدغتها حية؟!! إنا لله.. والله لقد أحببتهـا تلك المرأة.
- قل رحمها الله.
- نعم، رحمها الله. والآن ماذا سـتفعلين بقـارورة العطر؟
- لقد فكرت أن أهديها لقريبتها. إنها أيضا صـديقتي وهي امرأة طيبة.

- لن تشعري بالندم إن فعلت ، فمادام أنها قريبتهـا، فليس ببعيد أن تشبهها في خصلة ما.
- ربما.
- أمي إنها الثانيـة فجـرا، وأنـت متعبـة لا بـد. ألا تأخذي قسطًا من الراحة؟.
- إن كنت تريد ذلك فلا بأس.

(٧)

اسمح لي يا حضرة الضابط أن أبدأ هكذا، لكن أرجـو ألا تقاطعني ، لأني أنسى بسرعة وعندها أضطر إلى أن أبدأ من الأول:

ذات مساء من أيام صيف لم يمر على المنطقة أخـف ولا ألذ منه، جاءني صديقي خلف الذي يمتلك الآن معـرض الرواج للسيارات المستخدمة، وفي نفسه شيء. مرتبكًا كان. يقوم ويقعد، ويتنحنح، ثم يتنحنح، وأنا بطبعي حـاد المـزاج لا أحب الشيل والحط في الكلام وخاصة من خلف الذي كان في ذلك الوقت على قدر حاله من الغنى والعيش المحـدود، قلت هيا هاتها، هاتها بسرعة قبل أن أخرج في شأني، مـاذا تريد أن تقول؟!. قال: أريد أن أتزوج.. طبعا، مرت لحظات قبل أن أتأكد أن عقلي الذي ركبه الله في رأسي ما زال فـي رأسي، ودارت بي الأرض ولم تدر، لكنـي اسـتدرت دورة كاملة حتى عدت لوضعي الطبيعي وحضنت خلـف بهـدب عيني. والله، ثم والله لقد فرحت، يا حضـرة الضـابط أبـا إبراهيم، لما قال لي ذلك الخبر. صار لي مدة طويلـة وأنـا

أقول يا خلف تزوج، يا خلف تزوج، قبل أن يطـش المـال ويطيح الحال، لكنه كان يرفض الزواج قبل أن أتزوج أنـا.. وكنت أقول له كيف أتزوج وصورة "جزعا" في بـالي منـذ عشر سنوات؟!. كنت أقول له يداي لا تقويان علـى حمـل امرأة بعد "جزعا" وساعداي هذان هما الشاهدان على كلامي إلى أن أموت. لقد فتلت الحبال، وقطعت جـذوع الأشـجار، وحملت الجنائز، ودفنت الموتى، لكني لا أستطيع أن أحمـل امرأة حية بعدها على الإطلاق. والله، لقد فرحت برغبة خلف في الزواج وكان صدري تلك الليلة أوسـع مـن صـحراء الدهناء، ومن شدة فرحي نويت أن أتصدق بخمسـين ريـالاً صباح اليوم التالي للجمعية الخيرية لرعاية أسـر وشـهداء فلسطين.. طيب، ابنة من يا خلف تريد أن تتزوج؟! قال: ابنة ريدان الحضرمي. يعني صديقي ورفيق أيامي ريدان، الرجل الخلوق الأمين صاحب بقالة "ريدان" للمواد التموينية الوحيدة في الحارة. لكني ما كنت أعرف أن عنده بنات علـى وجـه الزواج غير تلك البنية الصغيرة ذات الغدائر التي تتطاير مع الهواء وهي تجري. وهنا قالوا أنها تلك البنت بعينهـا التـي يريد خلف الزواج بها. سبحان الله. لقد كبرت إذًا تلك الطفلة

وتغطت عن الناس وأصبحت أنثى في وقت وجيز!. وأنا في طريقي إلى بيت صديقي ريدان رأيت البنت تمشـي بخفـر خارجة من البقالة، فظننتها خرجت من أحد بيوت الجيـران، أو ربما هم ضيوف عند صديقي. لكني تأكدت بنفسـي أنهـا ابنته بعدما ناداها باسمها ودخلـت البيـت. سـبحان مغيـر الأحوال يا حضرة الضابط. أنا بعدما شفتها تغيرت أحوالي. صار قلبي مثل خف الجمل الراكض في مقدمـة صـدري، والدم شعرت به يعطيني قشعريرة دافئة مـن رأسـي حتـى أخمص قدمي. حاولت أضغط على قلبي، ما قدرت. كتمـت أنفاسي وتجاهلته. قلت ربما يخف بعد لحظـات لكنـه ازداد وجيبه. قلت له استح، ليس هذا أوانه. تنحنحت بصوتٍ عالٍ لعله يهدأ ويتركني أكمل مهمتي من أجل الله ثم مـن أجـل خلف صديقي. وتذكرت المرحومة "جزعا" وهي تتحرك هنا وهناك في البيت، وفي الحوش، لكن المرحومة، ويا للعجب، لأول مرة اكتشف أنها معي، ولكن جثة ميتة. اكتشفت أنهـا سحبتني معها عشر سنوات كاملة داخل قبرها. وحزنت، في تلك اللحظة، للغاية، لأن الشعور الكبير بفقدها أعمي عينـي عن أن أعيش حياتي. بل جعلني أموت معها، أو بـالأحرى،

لا يصيبني من الحياة إلا الأسمال. عشر سنوات وأنا أحملها على رأسي من مكان إلى مكان، ومن حي إلى حـي. حتـى الأعراس ما كنت أحضرها ولا أراها شيئًا يستحق المجـيء خشية أن أعكر عليها مقامها بأفكار من هنا أو هناك. لكنـي عندما رأيت تلك البنت الشقية وقد اسـتقام قـدها ورتعـت بقدميها في مصب الفتنة والجمال، انسلخ من قلبي كـل مـا يخص جزعا انسلاخ الليل من النهار ووجدتني بدون شـعور مني أدخل على جاري وصديقي ريدان في بقالته واطلب منه يدها. وهكذا تزوجت سجود يا صديقي الضـابط. رحـم الله أباها كان رجلاً شهما وفيا إلى أبعد حد.

ضحك الضابط من القصة ومن طريقة كلامه وحركة يديه وهو يتحدث. مثل كل مرة يلتقي فيها به، كان يحـب أن يسمع منه حكاية أو طرفة إلا هذه المرة، ليس يدري الضابط كيف سأله عن قصة زواجه، فالذي كان يريد معرفتـه هـو كيف هي علاقته بولده حافل، وما كان يريد معرفة شيء عن زواجه. وشعر بالأسى في داخله على ذلك الشخص، خلـف، الذي لا بد أنه فوجئ بعد ذلك بتغير مجرى الأحـداث. فـي مكالمة هاتفية طرح عليه الضابط فكرة زيارته فـي مكتبـه

لرؤيته والحديث معه. وكان ذلك في الظـاهر، أمـا هـدف الضابط فكان للوقوف على مشكلة حافل ومراقبة العلاقة بينه وبين أبيه من كثب. كان مطلق صديقه منذ أن كانا في سـن العشرين. تعرف عليه، ذات مساء عند أحد الجيران، وكـان قد قدم للتو من الصحراء هاربا من بيت أبيه للبحث عن عمل في المدينة. كان يدخن، ويلعب البلوت، ويرفع صوته أثنـاء اللعب منشدا بعض الأبيات الشعرية البدوية الماجنـة. لمـا تخرج الضابط من أحد معاهد الشرطة برتبة مـلازم، كـان مطلق جنديا أول في قوة الطوارئ، لكنه تركها علـى أثـر محكومية صدرت في حقـه بسـبب قائمـة مـن مشـاكل وخصومات بينه وبين زملائه، وبسبب غيابات متكررة.

بعد زواجه، أذاقته "جزعا" رحيق السكر مـن أزهـار الشوكران السامة التي يقول أنها تشبه حياته، فأصـابه مـس رجيم من جسمها الموغل في نار الشهوة والشبق الجنسـي، فجن بها، ثم تضاءل عنده، بعد موتها ، الفرق بين العمل في ثكنة الجنود التابع لها، وسرير النوم في بيته، صار ينام كثيرا ببذلته العسكرية وبسطاراه في قدميـه. غـرق فـي بنـات الشوكران من جديد، ولكنه هذه المرة كان من نوع مختلف،

إذا سرعان ما أوعز إلى نفسه بالمثول إلـى سـاعة مـزاج يقضيها وحده أو مع رفقة خاصة في تناول الحبوب المخدرة. وبدا واضحا أنه وضع رأسه في مغطس الأحـلام المطـاط، فمرة يبصر أنه صار في الجنة، بين الملائكة وهـو ببذلتـه العسكرية وبسطاره النظيف الملمع. ومرة ينادي في ذهـول: هات السيف يا مرهم.

لا أحد يعرف كيف غرس في رأسـه سـكين اللحـم، حينما، في أحد الأيام، حمل إلى أقرب مشفى حكومي وهـو في الرمق الأخير. وفي مكان الجرح، بعد فترة طويلة، نبتت شعرات بيضاء يعجز عن تصفيفها المشط. لم يصـدق أنهـا تنبت من رأسه في البدء. قال إنما هي خيوط تقطيب الجرح المصنوعة من النايلون تركوها عمدا في رأسه. عندما اقتنـع أنها شعرت حقيقية طلعت مكان السكين، من ملتقـى الغـرز بالضبط، أحس أمام المرآة أن الأطباء ضحكوا عليه وألصقوا في رأسه رقعة من الجلد ليست له. وفكر أنهم ربما أخـذوها من رأس امرأة عجوز متوفاة على وجه السرعة لإنقاذه. ندم بين جمع من أصدقائه، وكان منهم صديقه خلف، على العودة إلى الوعي بقطعة من جلدة رأس دخيلة عليه. ومر وقت وهو

يخجل من كشف رأسه أمام أحد معارفه أو أصدقائه الآخرين لئلا يسأله أحدهم عن الشعرات البيض. وفـي تلـك الفتـرة تعرف إلى الكثير من الحلاقين الذين كانوا كلما رأوه عرفوا أول عمل يقومون به في رأسه. وفكر في رفع دعوى علـى الطبيب الذي أخرج من رأسه السكين، لتعويضه عن الضرر النفسي الذي لحق به. ولما استقر رأيه على ذلـك، نصـحه صديقه خاف ألا يورط نفسه مع المشفي وإدارته لأنها ملـك الدولة. تلك الكلمة "ملك للدولة" جعلته يرضى بلطخة الشـعر البيضاء ويعيش حياته. ثم تزوج من سجود، وهو يظن أنـه سيجد عملاً يكفل له دخلاً ثابتًا يساعده على الوقوف متماسكًا أمام إغداقها عليه في العطاء.

لم يحتمل البقاء في مهنته الجديدة كدلال فـي سـوق الأغنام، عندما اكتفي الباعة بلقب " أبو غرة" بديلاً عن اسمه، فانتقل إلى مصنع صغير للأخشاب وعمل فيه أمين مستودع، ثم مشرفًا على العمال بالأجر اليومي. ومرت سـنة، وكـل شيء على ما يرام. عند ذاك كلفه صاحب المصـنع بـإدارة المصنع بالكامل باستثناء تدقيق الحسابات والصـرف. بعـد حرب الخليج الثانية وجد نفسه قادرا على الدخول في شراكة

بنسبة خمسين بالمائة مع صاحب المصنع الذي كان تعـرض لهزة قوية بسبب رحيل العمال اليمنيين المفـاجئ، ونقـص العمالة المدربة في البلد آنذاك. وهكذا بعد سنوات صار رجل أعمال وتوسعت علاقاته التجارية، وكان ذلك بعد مرور اثني عشر عاما على زواجه من سجود.

ضحك الضابط من أداء مطلق الذي لو كان في مسرح لحق له أن يحوز رضا الجمهور حسب ظنه. حدث ذلك فـي الأثناء التي بدأ حافل يقطع فيها الممر الطويل إلى المكتـب. ففي إشارة إلى أحد ضباط الصف، انتقلت المهمة إلى إحضار حافل لمكتب الضابط ، بدلاً من حجزه، فجيء به بسرعة كما لو أن ثمة إخلاء للمبنى قرر فورا:

- نعم، اعرفه، هذا ولدي حافل.
- اجلس يا حافل هنا. وأشار الضابط إلى مقعد عـن يمينه قبالة مطلق.
- ما مشكلته يا حضرة الضابط، لماذا جاء ولدي إلى هنا؟
- المشكلة بسيطة إذا أردنا التحدث عن علاقته بتلك الرسوم التي انتشرت في الجدران فـي الأشـهر

الماضية. ابنك ليس هناك مشاكل عليه سوى فـي أمرين، الأمر الأول كان أهل الحي قد قدموا ضده شكوى بسبب إزعاجه لهم بالمفرقعات، وهذا حدث منذ عام تقريبا، وأذكر أن المسألة حلت وديـا وإن لم تحل بشكل جذري حتى الآن. الأمر الثاني هـو وجود اسمه متكررا تحت رسوم طالمـا حيرتنـا المادة التي رسمت بها، وكنا نريد أن نعرف منـه ما هي علاقته بتلك الرسوم الغامضة ومـن هـو صاحبها إن كان يعرف ذلك؟

هذا هو الضابط إذًا. قال حافل في سره، وكان تـذكر قصة الاحتجاز الأولى وكيف قضى في الغرفة أكثـر مـن ساعتين بانتظاره، دون أن يظهر للعيان. اليوم، هذا المسـاء، ها هو يظهر له بعد عام من الحادثة الأولى. تصور أنه كمـا تخيله في الماضي، أو كما يتخيله فـي كـل حادثـة تثيـر احتمالات جره إلى مكتبه، كبير الجسم، عظيم الهيئـة يعلـق عن يمينه الكرباج وعن يساره الكلبشة وفي خدمته دزينة من الجنود المدججين بالعصي الكهربائية. لكنه، هنا رآه رجـلاً آخر عليه سيماء التقدم في السن والهـدوء ومشـاعر الأب

الصالح. بل إنه أهتز له عندما برفق قال له اجلس هنا وفـي فمه طيف ابتسامة. ثم عندما تكلم بتلـك الكلمـات بصـوت خفيض، أحس أنه فتح النافذة التـي وراءه، وسـمح للهـواء بالدخول، فتجدد الأوكسجين، وامتلأت الغرفة بعائلة كبيـرة تعج قلوبها بالفرح. وتساءل لماذا أخذني إلى الرسـم رجـال غلاظ بوجوه مشققة من شدة التجهم والإحساس بالنكد؟!. لـو سأله الضابط الآن: هل تريد أن تشرب كوب شاي؟! لكـان جوابه نعم بلا تردد. وأغاب الظن أنه سيسمح له بأن يبتسـم أمامه على هذا المقعد. وأن يجلس واضعا رجلاً على رجل. وبصورة تدعو إلى الإعجاب به، سوف يراه الضابط يميـل جذعه بطريقة شبابية إلى الوراء، ولا يزجره على تصـرفه، وقد تحين منه التفاتة، فيلمح قدمي حافل متزحـزحتين عـن حذائه القصيمية بحيث تكون وضعية اللبس كالتالي: نصـف القدم في الحذاء والنصف الآخر خارجها، لكنه سيظل هادئًا، كما هو الآن خلف المنضدة.

لماذا أبى عنده؟! سأل حافل نفسه بقلق ظاهر. سـؤال آخر خطر على باله ورأى أن لا بد من معرفة الإجابة عليه: لماذا قال أبوه، نعم أعرفه، هذا ولدي حافل؟!.. يقـول ذلـك

الكلام أمام الضابط في حين أن الشخص المعني بها هو حافل بالذات! هذا هو أبوه يجلس قبالته على المقعد، وفـي وجهـه إمارات الدهشة من وجود ابنه في السجن كما يردد. ولا حظ أن على الطاولة الصغيرة التي عن يمينه، كوب شاي بالنعناع لم يزل نصفه مملوءا، وله عروة مطعمة بحلقتين ذهبيتين في أعلاها وأسفلها. لاحظ حافل، أن الضابط يتوجه إلى أبيه ليس بالكلام فحسب وإنما بالاهتمام أيضـا، وبالصـوت الـودي، وبالعينين الأليفتين، وبتشـكيلة مـن الابتسـامات المفعمـة بالارتياح. وكان يبدو عليه أنه لم يكن ينتظر مشكلة لحلهـا، أو قضية للتحقيق فيها، بل بدا عليه كما لو أنه يستقبل ضيفًا، ليقدم له كوب شاي بالنعناع، ويتحدث معه عـن مفرقعـات صارت غبارا منذ عام، وعن رسم في جدار بيته يصـرون على أن فاعلها، هذا بالتحديد، ما يريد حافل أن يصل إليـه، هل كان صديقًا لأبيه منذ الحادثة الأولى، لكن أباه كان يكـتم أمر هذه الصداقة منذ ذلك الوقت؟!. وأصابت عقلـه شـعرة خبال حيال أبيه وصداقاته الغريبة. ففي الوقت الذي ينسـرب فيه أبوه إلى عزبة العم قائد ليجرد معه كمشة صـغيرة مـن حسابات مالية في بضاعة ممنوعة بالقانون، يراه حافل يجلس

في مكتب الضابط الذي يتولى التحقيق في القضية نفسـها، ويحتسي عنده كوبا من الشاي!!. وفي الوقت الذي يؤمن فيه أبوه أن من المعيب الذهاب إلى مراكز الشرطة، يجده داخل أحد فروعها، ويسأل الضابط فيها: لماذا جاء ولدي إلى هنا؟.

- رسم ماذا يا أبا إبراهيم حفظك الله؟ هل وجدتم ولدي على الجدران يرسم شيئًا ؟؟.
- في الحقيقة، لم نره يفعل ذلك، وإلا لكان وضعه الآن مختلف. لكن هناك مشتبه به ، لا نعرفه حتى هـذا الوقت يرسم الأشخاص ويعبث في الجدران، وكـان نريد تعاونه في هذا الجانب لا غير. صحيح، أوقفنا حافل لدينا حتى هذا الوقت، لكن لا يعني ذلك أنـه مذنب قبل استكمال التحقيق.
- خذوا لحمه وأعطوني عظامه إذا كان بالفعل متورطًا في تلك الأشياء التي تتحدث عنها. لن ألومك علـى فعل ما تراه مناسبا لإظهـار الحقيقـة مـن أجـل المصلحة العامة.
- العملية لن تبقى وقتًا طويلاً مستغلقة على الفهم. ثق من ذلك تماما.

- لقد أخبرته ونصحته بالابتعاد عن الشباب "الخاسعين" وقلت له لن يفيدوك بشيء. ابحث عن عمـل، فـي سوق الخضرة، في الـورش الصـناعية، فالعمـل الشريف لا يعيب الشخص أبدا.
- أنت صديق عزيز أخي مطلق، ويمكـن لولـدك أن يذهب معك الآن لو أخبرنا عن ذلك الشخص الـذي يرسم على جدران المدينة أشـكالاً لا تليـق بهـا. وللعلم، نحن ليس قصدنا أن ننزل به العقاب بقدر ما نريد أن يعرف أن هذا العبث غيـر مقبـول علـى الإطلاق.
- نعم، غير مقبول على الإطلاق. أوافقك بشدة علـى ذلك.
- وهو لن يهرب بعيدا عن قبضة الجهات المختصـة. سنلاحقه في كل مكان، ونكتشف أين يختبـئ فـي القريب العاجل.
- نعم، لن يهرب بعيدا مهما كانت قدرته على الهرب.
- يظن بعض الأولاد الأشقياء أنهـم قـادرون علـى إربـاكنا باللغط والتهويل واقتـراف الأعمـال غيـر

المسئولة، وهم في الحقيقية واهمون. إنهم يجهلـون تماما أننا يمكن أن نراقبهم من بعيد ونرصـد كـل حركاتهم وسكناتهم دون أن يحسوا بوجودنا.

- هل سمعت يا ولد، كلام سعادته. إنهـم يعرفـونكم تماما أنت ومن يمشي معـك مـن عيـال الحـارة البطالين.
- والآن، أخي مطلق، يمكنك أن تأخذه معك إن أردت ذلك.
- لعله يثمن هذا الموقف النبيل منكم ويرتدع، ويعـود إلى صوابه.
- لكنه لم يتحدث حتى الآن عن ذلك المخرب. نريد أن نعرفه ونعرف أين يسكن؟!
- هل سمعت؟!. يريد صاحب السعادة أن يعرف مـن ذلك المخرب الذي يشوه جـدران المنـازل بتلـك الصور القبيحة؟!.
- هذا إذا أراد الخروج هذا المساء وبشكل استثنائي.
- لا بد أنه، يا سـعادة الضـابط، يشـعر بالامتنـان لسعادتكم على هذه البادرة الإنسانية العظيمة، وأقـل

ما يمكن أن يفعله للتعبير عن امتنانه، هو أن يتحدث بالحقيقة لك عن ذلك المخرب. نعـم، هـذا إذا أراد الخروج هذا المساء إلى أمه.

- عندها فقط، سنطوي ملفه بشكل نهائي ولـن تبقـى عليه أية ملاحظة سلوكية، قد تعيـق توظيفـه فـي المستقبل.
- شكرا لك يا أبا إبراهيم، يا صديقي الوفي. أنا أعرف أنك فعلت ذلك من أجلي. من أجل صداقتنا الطويلة. كم أنت شهم!
- إنني منصت له، فليتكلم.
- أننا منصتان لك. فتكلم. تكلم يا حافل.

إذًا، هما صديقان منذ وقت طويل. فكر حافـل. لكـن على افتراض أن ذلك كان صحيحا، فقد بدا له أن صـداقتهما من ذلك النوع الذي ترجع فيه كفة على أختها طوال الوقت، وتذكر أن علاقة أبيه مع العم قائد لا تخرج عن نفس الـنمط من العلاقة التي يشهدها الآن بين أبيه وصـديقه الضـابط. الفرق أن العلاقة التي يشـهدها الآن بـين أبيـه وصـديقه الضابط. الفرق أن الضابط هنا يقول كلمته وينتظر من أبيـه

أن يوافقه عليها أو يرددها خلفه، أما هناك فالكلمـة بـالطبع لأبيه، لكن لماذا يذهب بعيدا؟. أليست لأبيه وحـده، سـلطة الكلام في البيت أيضا؟. ولاحظ من كلام والده أنه قال كلمته. خذوا ولدي واتركوني، من غير الضروري في هذا الشـأن ذكر الأسباب التي تدعو أبا للتبرؤ من ابنه بهذه الطريقة أمام ضابط. فالمسألة بالنسبة للأب واضحة. المصلحة العامة. إنه يعني هذه الكلمة وهو يقولها بصوت بالغ المتانة والصـفاء، إلى درجة أنه عندما كررها مرتين، حدثت له حالة انتشـاء وكأنه مارس لتوه العادة السرية. أما حافل، فلم يكن وجـلاً، ولا مضطرب القلب في تلك اللحظة التي وقف فيها تفكيـره على تصور أنه ليس أكثر من تمثيلية هزلية هذا الذي يحدث أمامه. واقتنع أنهما معا، أو منفردين، لا بد أن توصلا إلـى حالة من اليقين بأنه سيعترف أخيرا بتلك الأفعـال القبيحـة المرسومة على الجدران. إن نظرة واحدة مـن عينيـه لـن تخطئ تلك الهمسات المحمومة في تعابير وجهيهما وهي تقول له: هيا قلها، لقد طال انتظارنا يا فتى. وبمجـرد أن يقـول الكلمة الأولى، يقفزان مـن مكانيهمـا ويصـيحان انتشـاء: أرأيت؟.. كنا نعرف أنك ستؤثر السلامة وتخبرنا بالحقيقة:

- ليس أنا.
- ماذا تعني بقولك ليس أنا؟
- لست الشخص الذي رسم على جدار منزلك. إنكـم تقبضون على الشخص الخطأ، فيما الفاعل الحقيقـي يمرح في مكان ما حرا طليق اليدين.
- يمرح في مكان ما؟. أين؟
- يا حضرة الضابط، هل تظن أنـي أعـرف مـنكم بالأمكنة وخبايا البلاد؟!
- أصدقاؤك كثيرون ويمكنك أن تعرف مـنهم أشـياء مفيدة عنه. اسمه مثلاً. ملامح وجهه بالصدفة. كلمة قالها وهو يعبر دون أن يلقي لها شأنًا. قبل لي: كـم شخصا يجتمع في أغلب الأحيان بحوش المساكين؟
- فيما يتعلق بمجموعاتنا، فهي من خمسة إلى عشـرة أشخاص.
- وكلهم تعرفهم؟
- نعم.
- وتثق فيهم؟!
- كلهم أصدقائي، حتى أن منهم ـ ـ ـ

- مالك سكت؟ هل كنت تريد أن تقول اسما معينًا؟. من هو؟
- ولدك، سراج معنا أيضا
- هل قلت ولدي سراج؟!!.
- نعم، ولدك سراج يا حضرة الضـ..
- (قال الأب مقاطعا): اخرس يا ولد يا وقح.. كيـف تجرؤ على هذا الكلام التافه أمام سـعادة الضـابط. ولده سراج أعرفه جيدا، وهو من أكثر شباب البلـد حفاظًا على الأخلاق العالية والسلوك الحسن. عـذرا يا أبا إبراهيم على زلة اللسان هذه. إنه ولد طـائش كما تعرف ويقول أحيانًا كلاما خطيرا للغاية.
- مهلاً، يا مطلق.. دعني أستوضح منه الخبر. ما بـه سراج؟..
- يعلب معنا أحيانًا في حوش المسـاكين وخصوصـا عندما نتقاذف المفرقعات المشتعلة. إنه هـو الـذي ابتكر هذه اللعبة حيـث ننقسـم إلـى مجمـوعتين. مجموعة الأشرار وكان هـو يقودهـا، ومجموعـة

الأخيار وأقودها أنا. وكنا ننتظر حتى تغرب الشمس لنبدأ المعركة.

- هل تعرف شكل سراج هذا الذي تقول أنه ولدي؟!
- بدين، أبيض البشرة، يناديه بعضنا يا حلو.. يا قمر.
- (مرة أخرى تدخل الأب وقال مغضبا): حافل!! لعنة الله عليك يا ولد. لو لم تكن في مكتب سعادته لأوجعتك ضربا. كيف تقول هذا الكلام البذيء عن ابن سعادته المؤدب المحترم؟!
- اصمت يا مطلق لبعض الوقت. أنا من يتكلم هنا ويسأل من فضلك. هل هذا مفهوم؟!
- (أجاب الأب وقد بدا عليه الارتباك): أعتذر يا حضرة الضابط. تفضل تكلم.
- قل لي يا حافل. وأخبرني الحقيقة.
- عن ماذا؟
- عن ولدي سراج؟
- ما به؟
- هل هو يدخن؟!
- نعم.

- وماذا بعد؟!
- وهو صديقي.
- عرفت ذلك. لكن ما هي الأشياء التي يعملها معكم.
- يقود دراجة نارية. يضع سلسلة ذهبية حول رقبتـه، ولشعره يفضـل قصـة المـارينز. يحـب اللعـب بالمفرقعات وكرة القدم، لكنه طيب.
- حسنًا. هل أخبرت المحققين عن هذه الأمور.
- ما كنت لأفعل ذلك. إنه صديقي وبيننا أسرار.
- من هو الشخص الذي بينكم يجيد الرسم وتراه دائما يمارس على الجدران هوايته؟
- معظمنا يرسم القلوب المطعونة بالسهام. مرسل فقط، يرسم رأس حمار.
- سراج، ماذا يرسم.
- القلب النازف.
- ماذا تعني بقولك القالب النازف؟!
- يرسم قلبا يخترقه سهم.
- وماذا يعني هذا الرسم؟! هل تعرف؟
- يعني أن الذي يرسمه يحب.

- وأنت، ما هو الرسم الذي تفضل؟
- رسم البطيخة.
- وما هي الميزة في رسم البطيخة؟ أي شخص يمكن أن يرسم بطيخة.
- ربما لأنني أحب البطيخ جدا، تعـودت أن أرسـمه باستمرار.
- ألا يوجد بينكم من يرسم آدميين؟. أو علـى الأقـل يرسم رءوسا بشرية، أو أجزاء هيا كل عظيمة؟!
- الذي يرسم منا، لم أره يمارس هذا النوع من الرسم.
- هل تريد مني أن أصدقك؟!

(٨)

محظيته الصموت، قصم ظهرها فسمح لها أنة خافتة. لم تقاومه. انكسرت سريعا بين يديـه واضـطجعت علـى الأرض ليفعل بها ما يشاء. جسمها الناحل، صلبا يبدو فـي الظاهر. كتلته المتقشفة تسطع بالخواء من بعيد. في العمـق، التوهان محاطًا بنوره الخاطف، يدعوا إلـى الـدخول مـن يقترب. أقل ما يمكن حدوثه عند الملامسة الأولـى هـو أن الأنامل تطلب المزيد. ومعها تسـحب الجسـد كلـه، بقيـة التوغلات الأعمق في الباطن الناعم، الرقيق، المفعم بـدفء الاكتشاف والمراودة. في نفسه، تأمل حافل حديقة شاربة تنعم بعزلتها الحميمة، وتنمو على سجيتها، متخذة من حافة الشفة مطلة على رجولة في حالة كمون. وضوح لا حد لـه يفلـق يقينه بقدرته على الكتمان، ويدفعه إلى اتخاذ احتياطات قويـة لتحاشي الوقوع في مصائد الرغبة والشـوق كلمـا همـس لداخله: يا للأمور التي تجري!. ذات صباح استيقظ، فـرأى ثيابه الداخلية شهادة أخرى تعلن الحدث بصـورة صـارخة. تفوه الجسد بكلمته في احتفالية خاصة، وكان هو وقتها نائما،

الأمر الذي فوت عليه فرصة المشاركة. وصل متأخرا فلـم يجد سوى البلل. غير أن الآثار ما تزال تؤكد أن بالإمكـان الخروج في نزهة جديدة في وقت آخر وليكن مسـتعدا مـن الآن. وهاهو التوهان المضيء في جسـمها الناحـل يطلبـه فيبلي. يصف الحالة، وهو ينزلق في الهمهمـة والتلاشـي، بالاستسلام لخليط من النار والعسل يخترق البدن من الأسفل إلى الأعلى. يقترب منها، فترتجف تحت أصـابعه. يتسـاقط منها ذرور النار. تتفتح في أنفه رائحة جسـدها المـتعطش للومضة التي من شأنها أن تمس الشغاف، وتحـرق البـدن. حركة صدره، تعلمه أن القلب زاد نشاطه بصورة دراماتيكية بعد أن رفعها إليه، وثنى جذعها إلى الأسفل. ذلك ألذ، همس وهو يخرج من جيبه علبة الكبريت ليسكب الرعشة المطلوبة على جسد المفرقعة المنكسر من المنتصف، والملتوي حـول مسحوق البارود المكوم على اللوح. بمجرد أن يلتقـي عـود الثقاب المشتعل وكومة البارود، يكون جسده قد وصـل ذروة التوق لتفوهاته الحلوة، فينفجر الاثنان معا.

ذات مرة، اشتعل لوحده في باحة المدرسة لأن وقـت الفسحة انتهى قبل أن يشعل المفرقعة. خذلـه عـود الثقـاب

الوحيد الذي كان معه، في اللحظة الحرجة. انطفأ العود فجأة، ومضى هو في طريقه مرغما حتى النهاية. ضـاحكًا، شـد مسلطًا من يده، وفي همس اللصوص، أخبره أنه يفضلها مع مفرقعة صغيرة في مكان خاص. دجج أنفاسه مسلط بضحكة طويلة ثم قال: أنا أفضلها وقت الاختبارات الشهرية. كيـف ذاك؟!. سأله حافل ظنًا منه أن يسخر منه. أجاب مسلط وهو يحاذر أن يسمعه البقية: كما تعرف، في كل اختبـار هنـاك أسئلة سهلة وأسئلة صعبة. الأسئلة الصعبة أتجاوزها عمـدا للانتهاء من الأخرى السهلة في وقت مبكر. لكن الوقت يمر وأنا أفكر في الحل. أتوتر واضطرب وأحاول التركيز. لكـن لا فائدة. وعندما يضرب المعلم بيده على سـطح منضـدته للإسراع في حل الأسئلة، أتوتر أكثر وترتعش حالتي الخاصة بشكل لا أفهمه لكنه لذيذ ومدوخ بعض الشيء. عندئذ، أمـد رجلي إلى الأمام، وألصق إحداهما بـالأخرى بقـوة. وفـي الوقت الذي يبدأ المعلم فيه بترع الأوراق من الطلبة، أكـون قد شددت أوتار رجلي للغاية دون أن أهتدي لحلول الأسئلة. وما أن يصلني وينتزع ورقتي من تحت يدي، حتى أكون قد انتهيت وبللت نفسي. ضحك حافل ثم عقب: أشـياء غريبـة

تحدث معنا. أليس كذلك؟ أحيانًا، أتساءل ما هو الشيء الجيد في البارود ليمنحني هذه الخصوصية؟!. لكني أنسى السـؤال حالما أدخل في التجربة مدفوعا بما يشبه الحمى في جسدي.

وقال: المرة الأولى، حدثت عندما رأيت أخت شـاكر تتهادى في الشارع وحدها. الله، ما أجمل تلك المرأة. كأنهـا كانت نجمة مصرية تمثل في فيلم على رصيف ذلك الشارع بمشيتها الحلوة، واهتزاز لحمها الريان الذي تؤججه الـريح ليمعن في الإغواء والتسبب في إرباك قلـوب المتقـين فـي الشارع. ذهبت من فوري، إلى الحوش واقتعدت مكانًا ظليلاً أتخيلها في تلك المشية. خطوة خطوة مشيت معها، وغازلتها، ولامستها، إلى أن وجدت نفسي أقترب مـن حـرق علبـة الكبريت على قدميها، لأثبت لها أنها أقوى من كل ما لدي من مفرقعات بل وأقوى من كل المفرقعات الموجودة في البلـدة. لم أكن أعرف أنني كسرت مفرقعة بيدي، إلا حين شـممت رائحة البارود. وجدته قد انتشر بعضه فـي الأرض وتبـدد بعضه الآخر على أطراف أصابعي. ووجدتني بالنار ألاحـق المسحوق الذي سقط على الرمل لأحرقه بقعة، بقعة، بينمـا كانت تلاحقني نار أخرى قادمة من تلك المرأة حتى تمكنـت

مني وخارت قواي في مكاني، ومن تلك الخلـوة، صـرت ألاطف الفرص وأصطفي أنسبها لأكتشف المزيد. ارتبطـت يقظة النار في جسدي بالنار التي رأيتها تومض فـي جسـد أخت شاكر وما المفرقعة إلا وسيلة مساعدة بحتة. سمعت أن البشر جزء من غبار النجوم الذي قبل ملايين السـنين مـلأ الكون وما زال ينشط في أرجاء السموات. ولئن صح ذلـك، فلا أستبعد أن تفكر تلك المرأة بنفس الطريقة وربمـا تقـوم بنفس العمل بغض النظر عن ارتباطها بشخص آخر. ألـيس في النجوم شيء من عناصر البارود؟!. إذًا، أنا وهـي فينـا شيء من نفس المادة، هذه المادة التي أكلت أصابعي وكثفت وميضها الحارق في تفكيري.

في أحدى المرات، أقدم على تشريح مفرقعة صـغيرة كانت في يده. بدأ باللفة العلوية، بعد أن خرب بالماء المـادة اللاصقة التي تحمي طرفها من الانسلاخ والتفكك. تمنعـت، وقاومت فضوله، لكنه اقترب منها أكثر، وتشـمم رائحتهـا، ولاطف كتلتها المتوترة بأنامل حذرة. حك بآلة رهيفة الحـد بطن اللفة الملتصقة بظهر اللفة التـي تليهـا محـاولاً قـدر الإمكان تنعيم درجة الحك، وتطهيره مـن غريـزة التشـفي

والامتهان. عندما بدأ، كان يريد أن يعرف كـم لفـه يلـزم لتكوين جسد مفرقعة؟!. بيد أنه، أحس لاحقًا، بأنه اتبع طريقة جامدة للتعرف على اللفافة الورقية من قرب. من السذاجة أن تكون محصلة التشريح معرفة عدد اللفات فحسب. ما الفائدة المنتظرة من الوصول إلى هكذا نتيجة؟! لكن لو أنـه طـوع قوته من أجل أن يعرف سر تعلقه الغريب بالمفرقعات مثلاً، لأحس أن جهده لن يضيع هباء وهو يخترق طبقاتها الورقية بغض النظر عن النتيجة. أقر في البدء، أن الورق من النوع الرديء، حيث لاحظ أنه يتمزق إلى أوصال صـغيرة أثنـاء عملية السلخ . سر من أسرار اللفافة على الأرجـح. ربمـا لإعاقة أية محاولة للاكتشاف، تؤجج المفرقعة الملل في النفس بهذه الطريقة لحملها على صرف النظر عن الفكرة وإيقـاف البحث. هناك في الحياة بعض الأشياء المشابهة، مثل ثمـار القورو المرة التي تجرح اللسان بطعمها الحنظلـي وتظـل تغدق عليه مرارتها مع كل مضغة، بينما يكمن العسـل فـي قلبها الصغير. ليست ثمرة القورو كالمفرقعة. كما أن البارود هنا ليس كالعسل غير أنه في نهاية المطـاف رحيـق مـن الطبيعة يقود إلى النار كما يؤدي رحيق الزهور إلى اللقـاح

والعسل. النار تشوي ، وتحرق، والعسل يشـفي، ويـداوي الحروق. أما النار والعسل معا، فشيء آخر مختلف لا يظهر إلا وقت العمل.

كل لفة تسلخ من المفرقعة، تحمل إيحاءات متكررة عن جسد ناعم يتهوى في يوم قائظ. جسد يقول أن على الثياب أن تخرج مرغمة ليحصل هو على نزهته في المكان الذي يريد وبالكيفية التي يبتغي. لكن الورق الذي لبـث طـويلاً فـي المصنع، ثم لف حول حفنة بارود، وقذف به أخيرا في وجه العالم ليقوم بفرقعته الوحيدة، تجلت ضآلته في اللفة الأخيرة. في الطبقة المحيطة بالمسحوق الضحل. مـن خـلال تلـك الطبقة، ظهرت المفرقعة بضعفها الطبيعي، وقبحها الشـكلي المرعب. بدت للأذن مجردة من الصوت المدوي الذي كانت لا تني تتبجح به في كل اشتعال، وتكشفت للعين فاقدة لمظهر الكتلة الخطرة التي يحاذر اللاهون من الإمساك بهـا أثنـاء الفرقعة. مجرد بقايا لدمية صغيرة ألقى بهـا الأولاد تحـت العجلات بهدف توسيخ فستانها الزهري فحسب. المسـحوب الرمادي، الذي كان لا يمانع في حرق الأصـابع، وإشـعال النيران في الثياب، خرج عليه من تحـت اللفـة مرتعشًـا،

متروع الأبهة، بلا ظهر قوي يسنده إلى باحة يمارس فيهـا حضوره الخشن، وصيحاته الحادة. هل هذا كـل مـا فـي الأمر؟!. تساءل حافل وقد شعر بحزن عميـق لأن النتيجـة بدت بهذا الشكل. كأن الذي بين يديه ليس مفرقعة صـغيرة، وإنما شيئًا آخر ليس غير حافل نفسه. بل هاهو يحـك اللفـة الداخلية لحشوة الذات ويحفر فيما ظنه مستعصيا على الكشف والاختراق. يحفر في الجوهر المخبـوء وراء طيـات مـن المراوغة اليومية في نظراته إلى نفسه. من شعوره الزائـف بقوته في الباحات وقت اللعب، وبكونه إنسانًا غير عادي كما كان يردد أصدقاؤه، وكما رضي هو بذلك عن شخصه. مـن إحساسه الخادع بأنه كلما أطلق صواريخه في الفضاء، فإنـه يزداد صلابة في عيون من حوله، وأن قامته تطول إلى الحد الذي يشعر فيه أن رأسه يدنو من النجوم ويتـوهج مثلهـا. ترى، هل كان بظهوره في تلك الصورة يحلم بـأن يكـون شخصا آخر أقوى منه في الواقع، وأكبر منه تحملاً لمتاعـب الحياة ومضايقات الشرطة، أم كان فحسب يريد التخفي وراء عاصفة هوجاء من الألعاب النارية هربا من يقينٍ ما بتفاهـة

الحياة التي يعيش وحقارة الدور الذي وجد نفسه فيـه رغـم أنفه؟!

لا يشك فـي أن ثمـة روح للبـارود عاشـت معـه واستوطنت رغباته كل الوقت الذي مضى، وهـا هـي الآن تريد أن تشعل فيه النار وتحرقه.. ولكن إلـى أي حـد؟!.. يستطيع أن يلتقط من المفرقعة، أنها كانت بالصدفة المقـراب الذي وجهه نحو نفسه فاكتشف كم كان مراوغًا فـي النظـر إليها بتمعن طوال الفترة الماضية. وراء لفة من الأفكار التي أرادها لخلق شخصية فائرة وصاخبة في اللهو، ألفـى نفسـه شخصا آخر لا يمت له بصلة. بزعمه أنه الأب المرتضـى من الشلة، اقترب من خلق شخصية مطاعـة، تنتظـر مـن الجميع الانقياد لأوامرها بلا تردد. والغريب أن الشلة تطيعه وتنفذ أوامره بشكل شبه أعمى ولم يحدث أن انتفضت عليـه ورفضت أبوته ولا لمرة واحدة طـوال الفتـرة الماضـية. وبزعمه أنه الأكبر سنًا، حدد للكل تجاربه وخبراته ووضـع في القمة تجاربه هو وخبراته مدعيا أن ذلك من ضـرورات الشخصية غير القابلة للاستبدال لكونهـا الشخصـية التـي نضجت أولاً، والتي مبكرا دقت أوتادها فـي عمـق الحيـاة

وجوهر النظر إلى الأشياء. وبزعمه أنه صار الشخص الذي اتفق الجميع فيما بعد على أن به شيء من عادة الطبيعة في خرقها للمألوف، ابتكر لنفسه مرأى الإنسان الملهم الذي تهرع إليه الأنظار طلبا لحل المعضلات وإنارة الرؤى بالنظرات السديدة. وضع لنفسه نداء خاصا يتكون ليس من كلمات مثل يا مولانا، أو يا سيدنا، وإنما من مجرد أن تكون هناك معضلة ويشرع أحدهم في حملها إليه طلبا للبت فيها بالقول الصائب. كان يستثني بالطبع حالات توقيفه لدى الشرطة، حيث كان يعتبرها حالات ضعف عابرة لا تؤثر في وضعه ومكانته وتفرد شخصيته. ووراء لفة من الأصدقاء الذين تحلقوا حوله، ألفى نفسه منضغطًا داخل حلقة ضيقة من الأصوات والوجوه، ما جعله خاويا تماما من صوت خاص ومميز ينصت إليه باهتمام شديد وتعلق روحي كبير. لا وجود لحب فتاة معينة في حياته. قلبه باهت من الداخل وصامت كآنية نحاسية مركونة في مستودع معتم. وبهذا القلب الباهت عاش ما مضى من حياة على طريق جافة لها تحت أقدامه أصوات ألواح تحترق.

والتقط من المفرقعة أيضا، أنه في الوقت الذي يقـول كل شيء كلمته، أو خلاصة انفعالاته، أو جوهر رؤيته فيمـا حوله، أو يفصح عن معناه بشكل ظاهر ومتجل، أو يظهـر لمعانه الداخلي دلالة على نضجه واكتمالـه أو دلالـة علـى بلوغه حدا لا مزيد عليه، لا يجد حافل أنه وصل إلى شـيء يمكن أن يقول عنه أنه الشيء الذي، من خـلال شخصـيته الملتبسة تلك، أراد تحقيقه ليكون معبرا عنه ودالاً عليه، الآن فقط، يستطيع أن يقول بأن تكوينه الداخلي لا يثير لديـه أي إحساس بأنه واسع أو مضيء. وإذ يلحظ ذلك ، يزول عنـه تفخيمه المبالغ فيه لنظرته التي كانت تمنحه شعورا بالعظمة والأبهة كلما سلطها على نفسه ليعلن رضاه عنها ولتمجيـدها تاليا. كان فحسب يتواطأ مع نظرة الشخصية المختلقة كشيء له سلطة وقوة تأثير كبيرة على وعيه، مبتعدا بذلك عن ضوء الذات الذي كانت تحجبه الأوهام. روح البـارود التـي مـا انفكت تغدق عليه توهانها المضيء، وتملأ أحاسيسـه ألقًـا وتجليات في الفترة الماضية، ها هي تنقلب عليه لتكون أكثر الأعماق بعدا في داخله لحرقه وتقويض يقينه، وتساءل، هـل تفسر كل هذه التأملات سر تعلقه الغريب بالمفرقعات؟! بدون

أن يدرى، هل كان يندفع في البدء إلى إحراق مفرقعة ليرتسم ضجيجها في ضجيجه الداخلي، وبالتالي ليلتمع في ضـوئها الخاطف كم من الحقائق التي لا ريب تؤكد وجه الشبه بينـه وبينها؟!

بمعنى ما، أحس، في تلك اللحظة، بعفته تنتهك علـى يده، ورأى نفسه، متوارية خالف مفرقعـة وجملـة أفكـار غريبة، تتعرى له، ساحبة جسده نحو إغواء من نوع مختلف لا علاقة له بالخارج. وصل السلخ إلى الحد الحـرج. الحـد الذي شعر فيه بحرارة الباطن تلفحه ليقف ويختبر قدرته على التقدم واكتشاف المزيد. كان يريد أن يعرف إلـى أي مـدى يستطيع أن يصدق أنه، بالفعل وليس بالتوهم، اخترق عذرية شخصيته واقتحم ذاته هو وليس مجرد الوقوف على أنقـاض مفرقعة.

(٩)

مرات لا تحصى، حاول أن يرسم الكرسي ذا العجلتين على ورق مقوى، لكنه ما أن يبدأ في الرسـم ويفـرغ مـن العجلات وظهر الكرسي حتى يرفع يده ولا يكمل. كان يجـد صعوبة كبيرة في رسم الكرسي بدون أن تحضر أمه بوجهها الشاحب وجسمها الثاوي في المشـهد. ودائمـا مـا تكـون المحصلة أن يمتلئ الورق بعجـلات متجـاورة لا تخـص كراسي بعينها، وتوصيلات معدنية متقاطعة لا تـدل علـى شيء محدد. على النقيض من ذلك، كان يرسم ببراعة أحذية الصندل، والمشط الخشبي، ومشابك الثوب، وبقية أشياء أمـه الصغيرة، وفي إحدى المرات، اطلعت أمه على لوحة كـان منهمكًا في إضفاء اللمسات الأخيرة عليها، فرأته يرسم خاتما واسع الحلقة. غير أنه، أحيانًا، يشطح بعيدا خيالـه، فيرسـم خوخًا متعفنًا في سلة فواكه، أو تفاحا سوي بأرض المطـبخ. وكانت بصمت تتابع ما يرسم دون أن تتدخل أو تعلق. وهي لاحظت أن رغبته في الرسم، بدأت أثناء وقوفه في باحة أيام مليئة بالفراغ بعد تخرجه من الثانوية والبقـاء بـلا عمـل.

لم يجد، في المعهد المهني، مكانًا للتخصص الذي يريد حيث كان مملوءا عن آخره، فاضطر إلى الانتظار. في البيت يتحدث ويرسم وينام، وفي الخارج لا يوجد عمل سوى التنفيس عن ضيقه وتوتره بلقاء الأصدقاء وإشعال المفرقعات. شيء واحد كان يبقيه مستيقظًا معظم الوقت. أن يطرق عنصر من الشرطة باب الدار. الاستدعاء المباغت كان يعطيه طمأنينة خاصة. يحدث ذلك كلما كان على الشرطة أن تتأكد من علاقته برسم جديد ظهر في أحد الجدران فجأة. صار الاستدعاء يبهجه لأنه يدل على أن الرسام موجودا بالمدينة ما يزال. وكان ذلك يمنحه وقتًا للبحث، والتوهان في الطرقات خلف آثار يخمن أنها آثاره. أو وراء رائحة يعتقد أنها رائحته.

في حوش المساكين، حدد هدفه. أن يقف أمام كل إشارة بالفحم، ويتفحص كل صورة لآدمي مهما كانت عبثية أو بلا معنى. اقترب كثيرا من الوجوه. سأل عن الأسماء، والهوايات. تساءل أمام مجموعة أصحاب فتحت له حلقتها عن طيب خاطر: ما هي أغرب الأشياء التي تخطر على بال الشخص وهو يطالع رسما يعتقد أنه يشبهه؟. أثناء دردشة

عابرة مع مجموعة أخرى كان يتطرق إلى معاناته مع النوم. يسألون: لماذا؟. يجيب: لأنه يرى في النوم، أنه تحول هيكلاً عظميا يطارد صورته المنعكسة على جدران مدينة أشـباح واسعة الأرجاء. وكلما جلس إلى جوار أحدهم علـى حافـة ملعب كرة القدم الوحيد الموجود في الحوش، تمنى لـو أنـه يتقن الرسم ليرسم اللاعب رقم تسعة، أو ثمانية، أو عشـرة، أو أي لاعب بأي رقم، وهو يركل الكرة أو يتلقاها بمهـارة، مع الاتحادي، يحب نادي الاتحاد ومع الأهلاوي، يعشق نادي الأهلي. وهو وحداوي صميم أمام جمهور نـادي الوحـدة.. شرب مجاملة أقداحا من الشاي، ودفع أثمان أنواع مختلفة من العصائر، والبيرة المدجنة، والمشروبات الغازية. مص ثمار القورو المرة، وساهم في توسيع دائرة الطلب علـى شـراب السوبيا. تنشق النشوق، ودس في فمه الشمة وهو يشرح لمن حوله سبب الحروق التي على أطراف أصابعه وخصوصـا السبابة والإبهام. بصق على الأرض لعابه رائقًا فـي جلسـة على العود مع ثلة من أهل الكيف في تعاطي نبتـة القـات. اتهمه شباب العقاقير المخدرة بأنه "دبـوس" مـن المباحـث الجنائية مسلط عليهم، فأخرج لهم من جيوبـه علكًـا كثيـرا

ومفرقعات. آخرون اشتهروا بالمجون والعربدة، لاحظوا أنه مرح للغاية وجذاب، فعرضوا عليه الخروج في سهرة خاصة بالبر إذا أمكن.

وفي الإجمال، عرف أصـناقًا عديـدة مـن الشـباب لا يربط بينها سوى أنها جميعا داخل السور ورغم ذلك تعيش في دوامة بشرية واحدة تخبئ أحزانها في صخبها. بدو مـن قبائل شتى، هوساويون، برناوية، بلوش، بخاريـة، جـاوه، حضارم، أكراد، شناقطة، أفغان. ومن بين كل أولئك، لم يجد يدا تشده إلى طرف المكان ليدعي صاحبها أن الأوان قـد آن ليحط رحاله على حقيقة أن الرسام غير موجود، لا في حوش المساكين ولا في الواقع. لم يقف معه أحد، في المقابل، ليؤكد وجوده ويشرح له أوصافه، وعاداته في الحضور، وأمـاكن نشاطه، وانتهى إلى أن الكل في تقديم المعلومات الضرورية عن الرسام إما لا يعرف شيئًا البتة، أو أن المسألة مرت عليه لتذكره أنه إذا كان عليه أن يضحك، فليضحك الآن. إلـى أن قابلة رجل طويل في وسط الحوض، بدا له من ملامح وجهه أنه قطع شوطًا كبيرا من العمر في الشقاء والبـؤس، رغـم

هندامه الحسن وتأنقه الملحوظ. تأمله الرجل مدة تكفي لأن يتوجس منه حافل شرا، ثم تكلم بمودة ظاهرة:

- وجهك ليس بغريب عني. لحظة لأتذكر أين رأيتك.. لحظة، لحظة.. نعم، أنت ولد "أبو غرة" صحيح؟!!
- "أبو غرة" من يا عم؟. لابد أنني ذكرتك بشخص آخر يشبهني. عن إذنك.
- مهلاً. أنت ولده.. إنني متأكد من أنني رأيتك معه أيام كان يبيع ويشتري السواكن في حراج الغنم.
- إن كنت يا عم تتحدث جادا، فلست أعرفك ولا أعتقد أنك رأيتني من قبل. أبو غرة من هذا الذي تزعم أنني ولده؟ وسواكن ماذا؟!! أبى أسمه مطلق. مطلق يا عم وليس" أبو غرة" .
- مطلق.. نعم، هذا هو اسمه وأنت حافل.. أليس كذلك؟
- من أين تعرف أين؟!.. وكيف عرفت اسمي؟
- إنها قصة طويلة. أخبرني كيف حال أبيك؟
- بخير، ولكن من أنت؟!.

- أنا صديق قديم لأبيك. كنت معه جنديا فـي نفـس السرية التي فصل منها.
- أهلاً بك. والآن عن أذنك..
- لماذا أنت مستعجل؟! تعال معي لأحكي لك حكايـة غريبة حدثت لي.
- شكرا لك، ولكني فعلاً مستعجل وأريد العودة إلـى المنزل بأسرع وقت.. مع السلامة..
- ولكن الموضوع يهمك.
- ماذا تقصد؟!
- أتحدث عن هذا الشخص الذي سمعت أنـك تبحـث عنه هنا. أقصد الرسام!.
- ولم لا تحكي عنه هنا؟!
- إذا كان يهمك أن تعرف عنه شيئًا، فتعال معي إلـى مكان قريب من هنا. لا أكذب عليك.

ساورته الشكوك في الرجل. إما أنه شخص معتوه لديه مشكلة عويصة في عقله، أو أنه لوطي يبحث عـن طرايـده بين مجموعات الشباب المتجولة في المكان وعليه أن يحـذر منه. أو هو مدسوس له من قبل المباحـث للحصـول علـى

معلومات إضافية عن علاقته المزعومة بالرسام. الأمر الذي لم يفهمه هو لفظة "أبو غرة" وعلاقة اللفظة بأبيه، لقب مثيـر للسخرية والتندر!. "أبو غرة"!!. تساءل وهو يمشي، بمحاذاة الرجل مغادرا المكان: ترى، هل كان يوجد غرة فـي رأس أبي بالفعل ولذلك أطلقوا عليه ذلك اللقب ، أم أن للغرة معنى مختلف لم أدركه بعد؟!. لم يسبق له أن رأى رأس أبيه بشعر وافر منذ أن وعي النظر إلى الأشياء، حليقًا علـى الصـفر، كان يراه كلما كشفه أمامه ومسحه بيديه تعبيرا عـن التعـب أو لمجرد تدليك الرأس لا أكثر. في مقدمة الرأس يوجد فقط أثر الجرح القديم. غير ذلك لا شيء. جلـدة لامعـة تنزلـق عليها قطرة الماء كما تنزلق على سطح كرة زجاجية نظيفة.

الغرة، الغرة، يا حافل. همس لنفسه ضاحكًا، وهو يعبر مسافة معتمة متجها بصحبة الرجل إلى "الهدام". بيوت شعبية قديمة كانت قد هدمت البلدية نصفها لمخالفتها قوانين تصاريح البناء، وتركت النصف البـاقي للكـلاب والقطـط وبعـض المتشردين. البدو الذين شيدوها طردوا من الموقع بقوة مـن الشرطة والبلدية، يتقدمها بلدوزر عريق في تقويض الأبنيـة الشعبية. قالوا لهم: أرحلوا من هنا فهذا المكان للدولة ولـيس

لكم.ولما كانوا لا يعرفون الفرق بين ما هو للدولة وما هـو للوطن، أصيبوا بغربة في القلب وأقلعوا عن التشبث بفردوس صندوق التنمية العقاري الذي تفشت أخباره في كل مكـان. ومرة أخرى جمعوا أولادهم وأثاثهم في شاحنات، ثم تمزقوا في الآفاق، وهم يلعنون البلدية ويشتمون الشرطة.

في الطريق ناوله الرجل قبضة من الفستق المملح الذي كان معه. أكله حافل بدون أن يخامره شك في لذته وطـراوة مذاقه. ارتفع سعال الرجل فاكتظ صدره بصوت البلغم. رغم ذلك، شرع ينشد بصوت خفيض إحدى القصائد التي بالكـاد حفظ منها:

"تدلى مِن الشّجر المر.. ثم استَوى
عِنْد بوابةِ الريح
أجهش:
بوابة الريح
بوابة الريح
بوابة الريح....
فانبثق الماء من تَحته غدقًا،
كان يسكنه عطش للثرى

كان يسكنه عطش للقُرى
كان بين القبور مكبا على وجههِ
حين رف على رأسه شاهدان من الطير..
دار الزمان
ودار الزمان
فحط على رأسه الطائران.."[1]

كان صوته رغم حشرجته مقبولاً، ينفع لكسر الصمت الذي تسامك في الطريق. أما ما سمع من القصيدة، فأفترض أن ثمة طرق أخرى في هذا العالم غير هذا الطريـق الـذي يقطعه بقدميه. طرق لا نسلكها بالأقدام على الإطلاق، وإنمـا نسافر فيها بوسائل أخرى يعتقد حافل أنه، للأسف، لا يملـك منها ما يكفي في الوقت الحاضر. فما الذي حدا بهذا الرجـل لإنشاد مثل هذا النوع من القصائد الغامضة؟. منـذ البـدء، لم يقتنع حافل بفكرة ذهابه معه، ووصف نفسـه بـالمجنون والمتهور من أول خطوة. لكنه، في نفس الوقت، لم يرضـخ لفكرة البقاء وترك أية فرصة لمعرفة أي شيء عن الرسـام، تمضي هدرا. ولئلا يستسلم لأفكار تخدم فكرة النكوص عـن

---

[1] المقطع الشعري للشاعر السعودي محمد الثبيتي

البحث، انطلق بسرعة أكبر لاحقًـا بالرجـل الـذي طـوال الطريق لم يلتفت إليه، ولم يتكلم معه. دخلا عتمة البيـوت، وشوارعها الضيقة من فتحة جدار واسعة جعلت بابا للدخول المختصر. سمع حافل نباح كلاب قريبة، ثم ما لبث أن اشتد النباح حتى ظن أن الكلاب ستظهر عليـه مـن أول عطفـة تقابله. غير أن الرجل قال هنا البيت. كان عبارة عن غرفتين صغيرتين، لكل منهما باب مستقل، ونافذتان. كانتا غائصتين في قاب ركام من الحجارة وألواح الزنـك الممزقـة. فقـط الطريق الضيق المتعرج هو الذي يبوح بهما، ما أن يخـرج الماشي إليهما من حطام وخرائب البيوت المجاورة.

بالنسبة إلى حافل، بقي رأيه في وصف نفسه بالمجنون على ما هو عليه، حيث غامر مع رجل لا يعرفه في الدخول إلى منطقة مرعبة كأنما خرجت لتوها من بين فكي زلـزال مدمر. أول ما فكر فيه هو أنه، كشاب يخشى على نفسه من هتك العرض، أصبح سهل المنال. تفقد قدراته المتوفرة، فلـم يجد إلا قوة رجليه في الركض وصراخه إذا لـزم الأمـر. وساورته أفكار في الموت على أيدي رجال غلاظ الطبـاع، خارجين على القانون، يكادون أن ينقضوا عليه للنيـل مـن

عفته، وتخيل نفسه، تحت أجسام ثقيلة متوحشة، يحاول اللحاق بأنفاسه متحاشيا قدر المستطاع استنشاق التراب القريب من أنفه، وفي نفس الوقت يحاول التشبث بعذرية جسم غير منتهك، لو حدث ذلك، فأغلب الظن أنه سيموت كدجاجة سقط عليها من حيث لا تدري طابور من الجياع. وبحذر بومة برية مستنفرة، أدار عينيه في المكان مبتدئًا بالنقطة التي وراء ظهره ومنتهيا إليها. قرر أن من الصعب تحديد أين يكمن الخطر في منطقة تعج بالأنقاض في كل مكان. أسوأ ما في المشهد، أن الظلام بث عروضا فوضوية من الشعوذة البصرية والأخيلة السوداء المتقافزة هنا وهناك بحيث يصعب التفريق عند من هم في مثل حالته بين الحقيقة والوهم كانت رغبته الدفينة أن يخرج من المكان حاملاً في ذاكرته أغرب نكتة في حياته. كأن يفاجئه الرجل وهو واقف على باب منزله بسؤال مثل: نعم، أية خدمة؟!. أو بسؤال مثل: والآن هل تعرف طريق العودة؟!!. وذلك ليقطع بشكل يقيني وحاسم أن الرجل يتقن صنعته كمهرج خفيف الدم لا يتردد في عمل أي شيء لجلب المتعة إلى روحه وترطيبها بالتنكيت. سيحبه لو فعل ذلك وسيتخذه صديقًا. وبالطبع

سيضحك من المقلب الذي أوقعه فيه، وعن طيب خاطر يقسم أنه سيسامحه على فعلته إذ أمده بكـم وافـر مـن المـرح المفاجئ، وبطمأنينة كان بحاجة إليها.

وفيما هو يحل بصمت خيوط أفكاره، صدر عن الباب، وهو ينفتح، صوت صدئ بفعل احتكاك المفصلات، فانتبـه، من الداخل خرج كائن بشري سوده الليل حد أن ملامح وجهه اختفت بمجرد أن خطى من فوق عتبة الباب. ضوء السراج الذي بقى وراءه في الغرفة، كشف ألوانًا لا حصر لها ملقـاة عشوائيا على الجدار الظاهر للعيـان. ولأن البـاب انغلـق بسرعة، لم يثبت في عينيه سوى الشبح القزم الذي دفع الباب وخرج. كانت طفلة ربما في العاشرة، برأس صغير ذي شعر منفوش وخطوات مشوشة. اقتربت منه، وعندما لم يبق بينـه وبينها إلا أمتار قليلة، انحرفت يسارا ووقفت. ظلت صامتة. بقي وجهها بعيدا وعصيا على رغبته في اكتشاف ملامحـه والتفرس فيه، ومرة أخرى، انفتح الباب وخيـل لحافـل أن صوته صار أعلى وأكثر فظاظة. وفي قلب الغرفة، رأى نور السراج ثابتًا على الجدار ما زال، كما في المرة السابقة، غير أن الألوان امتلأت بانعكاسـاتها الداخليـة تحـت ضـوئه ،

وتشبعت في خطوطها تداخلات الضـوء والأشـكال. كـان الرجل يدعوه للدخول. تفضل، قـال لـه، وأمسـك بالبـاب مفتوحا، مفسحا له الطريق إلى الداخل. بدت له الغرفة أكبـر اتساعا مما كان يتصور، وأكثر اكتظاظًا بالألوان. أثاثها قليل ومستعمل بإفراط. لا بأس، ليجلس فحسب، فالمكـان لـيس مكانه ليبحث عن الموقع الذي يعجبه الجلوس فيه، وليشترط الأثاث الذي يروق له. لكنه عطشان، وهذا هو المهم، فجوفه يكاد يتحول إلى صحراء قاحلة من شدة العطش. جلس علـى "طراحة" من الإسفنج مكسوة بقماش رمادي تالف، ويتوسطها مخدة صغيرة مناسبة لسرير طفل. كـان ضـوء السـراج الموضوع على تجويف النافذة المغلقة، يشـع مـع زجاجـة متسخة، في جزئها السفلي فجوة مفتوحة من كسر قديم، أهلاً بك ، قال له الرجل. ثم سأله ما إذا كان عطشـانًا؟. أجابـه حافل موافقًا، ثم أضاف: لكني لن أبقى هنا طويلاً، علـي أن أعود إلى البيت باكرا. ألح الرجل، وهو يخرج من الغرفـة، في إكرامه بما يليق ثم قال أنه سيعود في الحال.

على "الطراحة"، وفيما هو يعبث بالمخدة الصغيرة في انتظار الماء، تثاءب. قرصات لطيفة وغريبة كأنما صـدرت

من أفواه فراشات جائعة، انتشلت من عينيه رغبتها في تتبـع خطوط الوسخ في المخدة، وأشاعت فيهما رغبة أخرى. النوم على المخدة الصغيرة نفسها. بعد لحظات مقاومـة، فاجأتـه رقبته بالتخلي عن صمودها الطويل تحت رأسه. تحولت إلى زنبرك رخو يتصرف بها ثقل الرأس تارة إلى الأمام، وتارة أخرى جهة كتفه الأيمن. لا أمل في المقاومة. آخـر نظـرة كانت على الباب. لكنه فوجئ، في تلك اللحظة الخاطفـة، أن الغرفة ضجت بسواد مهول. كل شيء حولـه صـار كتلـة صماء من ليل دامس. حتى عندما خشخشت تحـت رأسـه المخدة، تهيأ له أنه سحق جزءا من العتمة بينه وبينها. لكـن تلك السقطة الخفيفة لرأسه، فتحت له من فجون يجهلها عـالم الأحلام والرؤى، أو هكذا كان يفترض. فيما بعـد، وصـفها بأنها نزهة حقيقية، وجعلها قصته الكبيرة رغم أنه لم يحـدث بها إلا العم قائد الأشول في داره ذات مساء. قال له لنفترض أنها أحلام، ثم قص عليه ما رأى، لكن الأشول بعد ذلك صار يتحاشى الجلوس معه والتحدث إليه.

في بداية الحلم، قال إنه لا يدري، ما إذا كان صـخرة على حافة جبل أم شيئًا آخر معلق بين السماء والأرض، ذلك

الشيء الذي خشع تحته. كان يجلس متربعا، تحت شرشـف من الهواء رطب وبارد. أما الوقت، فكـان خليطاً ـا هادئًـا ومسالما من الأسود والأبيض. شيء من قبيل أن يقف المرء على تلك المنطقة الرخوة من آخر الليل وهي في حالة إذعان صامت لطلائع نهار قادم لا محالة. لكن الأفق أمامه، كأنمـا كان يتمدد بفعل مضخة عملاقة تدفعه إلى كل الأنحاء. ذلك، ما جعله مغتبطًا بحدة بصره، كما علـق لاحقًـا. إذ انفـتح لبصره مخرج دخلت منه الأشياء والأمكنة أو يكاد يقول دخل منه كل شيء رآه ولم يره. أحس به أولاً يتشقق من خلايـاه، أو بوصف أشمل يتحلب من جسـده المعلـق بـين السـماء والأرض وذلك بالمقدار الذي خمن فيه أنه هو بنفسه يتفصـد من يباس الزهور التي حوله إن كان ثمة زهور. أو ينتأ مـن الصخور التي تعانقت تحته فصارت جبلاً إن صح تقـديره. جذعه الذي أصبح صلبا، قال عنه، ولماذا لا يصـبح خشـنًا أيضا لأكون شجرة حتى لا أسقط. كان يخيفـه أن يتبخـر، أو يغلي، أو يصير زجاجا ويتحطم رغم أنفه، تحت ضـغط المشهد الذي ملأه وهطل عليه.

"بماء أرضي متكدر اللون، رأى السقاة يخرجون مـن الآبار والبرك المظلمة ملطخين بالأطيان السفلية، واحدا فـي إثر الآخر أعدوا المواثيق على الحواف الرطبـة، وأطلقـوا على أنفسهم أمناء الينابيع، وبعد ذلك اندفعوا مجاهرين بفكرة الحفاظ على شرف الماء مـن الـدنس. طرقـوا الأبـواب ووضعوا في أيدي أهلها رقاع الدعوة لحضور حفل السـقاية الأكبر في وسط المدينة. كانت للرقاع أفواه طيـور وألسـنة شعراء شديدي الحماس والفذلكة. في لحظة خاطفة، صـارت المدينة على شكل صحن، يتوسطه ميدان واسع له مدرجات، وله ممرات ملونة، وثمة أعلام تخفق على أطـراف منصـة كبيرة في الصف الأول من الميدان. صار النـاس يتقـاتلون على موضع القدم في الصفوف الأولى، ويتدافعون بالأكتاف على المواقع الخلفية، بينما في وسط الميدان تحلـق السـقاة حول المياه المحفوظة في أوعية معدنية بيضاء كبيرة الأحجام ذوات أعناق بارزة ورءوس تشبه رءوس الهداهد. وعبر سلم الهواء الملوث كانت الكلمات إذا تصعد وتترجرج كفقاعـات ضخمة، تصل إلى الآذان، وفي الأعلى يرتطم بعضها ببعض فيحدث لطباق الجو العليا صفير حاد غير أنه مـا يلبـث أن

يبتعد مفسحا المجال لصفير قادم، كان السقاة عن فم واحـدة يتكلمون، مصوبين أعينهم إلى أوعية الماء المرتبـة بشـكل دائري . كانوا يلقون خطبة احتفالية من غيـر أوراق. فقـط الكلمات تخرج من الأفواه في وقت واحد، وبنبـرة صـوتية واحدة حد أن بعض الذين وقفـوا فـي الصـفوف الأخيـرة تساءلوا ما إذا كان بالإمكان أن يرى أي منهم الشخص الذي يتكلم. كانوا يتحدثون عن الماء الذي حفظته لهم الأرض منذ ملايين السنين. في العتمة السفلية استقر محتفظًا بخصائصـه الأولي وسلالته المائية القديمة عب القرون. قالوا أنهم كأمناء أزليين على الينابيع النقية، ورثوا عن آبائهم ما كانوا حفروا من آبار فواصلوا هم الحفر ناحية الماء الأول الكامن في أبعد مكان بالأعماق. وقالوا أنهم في حين كان النـاس يسـافرون على وجه الأرض إلى أي مكان يريدون، كانوا هم يواصلون سفرهم إلى أسفل. وبينما يقصد الناس في أسفارهم الأمـاكن البعيدة لرؤية الأحباب، والأصحاب، من أجل قضاء أجمـل الأوقات معهم، كانوا هم يهجـرون الأحبـاب والأصـحاب، ويغادرون الأوقات الجميلة من أجل رشفة من الماء الخالـد. وقالوا أن أمنا الأرض تتمتع بالحياة الطويلة لأنها تشرب من

ذلك الماء. لكنهم لما رأوا أن ذلك الماء الذي يريدون بعيـد الغور ولا يمكن أن يصلوا إليه في حياتهم مهما كانت مديدة، ولأن الآبار التي واصلوا حفرها صارت تبعدهم أكثر فأكثر عن مساكنهم على سـطح الأرض وعـن أولادهـم الـذين سيرثونهم في المستقبل، ولأن ظهورهم توشك أن تتصلب في أشكال نصف دائرية ، ولأن ألسنتهم تقلصت إلى الداخل وما عادت تحسن الكلام كما مـن قبـل، ولأن أعيـنهم تهـدلت وصارت تنفر من نور الشمس، من قبل، ولأن أعينهم تهدلت وصارت تنفر من نور الشمس، فقد فكروا طويلاً، وتشـاورا فيما بينهم فرأوا أن يخرجوا من أعمق نقطة وصلوا إليهـا، كما وافرا من طين الأرض الداكن الرطب ، ثم يضعوه فـي برك واسعة إلى أن ينزل المطر ليختلط عندئذ قطر السـماء النقي بطين الأعماق الخام الأصيل. قالوا أن الحيـاة علـى الأرض، وبهذا الوجه الذي يتقنعه الناس، إنمـا تحمـل فـي باطنها التلف ولن تستمر طويلاً، وذلك لأنها تفتقر إلى كثافة الطين السفلي ودفء الأبد في مياه الأعماق الخالـدة، وفـي خطبتهم الطويلة شكروا الطحالب في المياه السطحية الآسنة، لكونها أمدتهم بالدرس البليغ عن الوجـود الضـحل سـريع

الزوال وقالوا يأخذ لون الماء من ولد بالقرب من مسـاقطه، وينجو من الغرق فيه من تشكل في تجمعات سيوله. وقـالوا من حمل منذ الصغر يرقات الملاريا اليافعة فـي غدرانـه، يمكنها أن تستلب منه مخاطه وتقرح خياشيمه لكنها لن تجعله يرقة ولن يصبح يوما ما بعوضة. والمياه ليست سواء في كل الأرض. مثلنا المياه، وليس يشبه الماء الموجود في أحـدنا، الماء الموجود في الآخر. ثم أكدوا بيقين قاطع أن المياه فـي أبداننا بدأت تفسد وتتعفن وتمتلئ بالطحالب ، وأننـا نختلـف عن المستنقعات الراكدة والمتجلطة منذ القدم، في كوننا صرنا مجمعات ساكنة لمياه أخرى ليست تنتمي إلينـا. وشـرحوا بكثير من التركيز على الكلمات كيف أن الكثير من الحشرات مثل النمل والذباب، والكثير من القـوارض مثـل الفئـران واليرابيع، والكثير من الزواحف والدواب احتفظ بخصـائص سلالته الأولى فلم يتغيـر شـكليا، ولـم تخـتلط بالمعادلـة البيولوجية لمياه نوعه الأساس، تراكيب معادلة غريبة. ورأى حافل – كما شرح لاحقًا للعم قائد الأشول دون أن يؤكد مـا إذا كان ما قاله هو ما حدث بالضبط أم شـيئًا يقاربـه – أن المكان برمته تحول أذنًا كبيرة مفتوحة وموجهة صوب مكان

واحد لا غير. صوب المكان الذي يقف فيـه السـقاة وهـو منهمكون في إلقاء خطبتهم الطويلة فيما أبصـارهم مصـوبة إلى أوعية الماء. كان الكل يريد أن يصل إلى ذروة الحدث، إلى اللحظة التي يبدأ فيها توزيع رشفات من الماء المكنـون على الحشود الغفيرة. غير أن السقاة لم يتوقفوا عن الكـلام، ولا حتى لمجرد أن يلتقط أحدهم أنفاسه، بل ظلوا يتكلمـون عن قصة التغير الطفيف الذي أصـاب قلـب الأرض قبـل ملايين السنين فنتج عنه أن تحول الباطن إلى حمم، والحمـم صارت جبالاً راسية ما تزال تحمل رمـاد الـولادة دون أن تستطيع قوى الطبيعة بث الوهن فـي صـخورها وتشـويه صورة بنوتها للأرض. بعد ذلك، أشاروا إلـى أننـا كبشـر يلزمنا ألا نتغير بسرعة كما تتغير أشياء الطبيعـة الأخـرى وذلك لنستمر محافظين على نفس الثمرة البكر للحياة. ليست الأرض وحدها يحتفظ جوفها بماء الكينونة الأولـى، وإنمـا نحن أيضا بما أننا أبناؤها الخارجون من تراب الخلق الأول الذي يحمل عناصرها وينتمي إليها ولكن يتحتم علينا أن نمد عروقنا بعيدا إلى باطن الأرض، كما تفعل الجبـال، لنـنعم بكترها العظيم، وتدفق الألوف إلى الميدان يريدون رشفة من

الماء وإن لم تتيسر فقبضة من الطين يضعونها في أفـواههم ويمتصون ما تبقى فيها من قطرات. يبد أن السقاة، وخوفًـا من أن تفلت الأمور من أيديهم وتنتقل إلـى أيـدي الحشـود الهائجة، سارعوا إلى تقديم الكبراء وذوي النفـوذ والسـلطة فمنحوهم مغاريف معدنية وفتحوا لهم الأوعية فشرع أولئـك القوم يعبون من المياه ويفيضون منها على أبدانهم. ثم جـاء دور الفئات الاجتماعية الأخرى، كـل علـى قـدر منزلتـه ومكانته لدى الكبراء وأهل الحل والعقد في المدينة. حتى إذا لا لم يبق إلا الطين مختلطًا بنتف الطحالـب، فـتح المجـال للعامة فانهدت إليه من كل صوب يطأ بعضها بعضا، ويلعن بعضها بعضا. وفي الوقت الذي مضى فيه كل إلى سـبيله، وبعد أن عادت المدينة إلى شكلها الأول واستقامت شوارعها ودورها، قرر حافل – كان يقول للعم قائد أنه يظن أنه بالفعل قرر_ أن يبحث عن السقاة ويستفسر منهم عن قصـة المـاء الغريبة وحقيقة أزليته وخصائصه الخارقة. لكنه بدلاً من أن يعرف من الناس أين يمكن أن يجدهم، فوجئ بالناس يسألونه عن حقيقتهم وهل هم سقاة حقيقيون وأمناء ينابيع بالفعل كمـا يقولون، أم أنهم من صنع المجلس البلدي للمدينـة لإضـفاء

مسحة من القداسة على هيئات أعضـاء المجلـس هيئـات أولادهم وبناتهم وزوجاتهم إلى آخر السلسـلة المعروفـة؟. وحطم لبان مغرافه الخشبي على رأس جبل في منظر طبيعي علقه على جدار المحل وقال ما معناه: أكرههم، عنصـريون وسفلة. وذكر أنه لم يحضر مهزلتهم، كمـا وصـفها، لكنـه نتيجة لذهاب الناس عانى من حالة كساد ذلك اليـوم. أحـد زبائن محل لبيع العصائر، وجد الفرصة سانحة ليعلق علـى الحدث من وجهة نظره ، قائلاً أنه بعد أن ضرب بالمغاريف على رأسه لأنه حاول مزاحمة كبار القوم ليشـرب معهـم ، أدرك أنه حتى لو وصل إلى أعماق الأرض واستخرج ذلـك الماء بأظافره ورموش عينيه، فإنهم لا محالة آخـذوه منـه وسالبوه إياه رغما عنه. وخلص إلى القول، وهو يلتهم قطعة خبز مدثرة بالطحينة، أن الماء العكر الـذي شـربوه كـان بالضبط ما يستحقون لأنهم ليسوا أنقى منه. وفي الطريق إلى وسط المدينة شعر حافل بالعطش يشرب كبده، فعرج علـى بائع ماء، يقف على كتفه طائر هدهد متوسط الحجم، وفـي وجه الرجل الغريب، وتحديدا في خده الأيسر، ثبتـت حلقـة معدنية كبيرة. كان الرجل يبتسم في وجـوه النـاس، بينمـا

الطائر ينادي بصوت مسموع: وصلتم، وصلتم، ماء طبيعي، ماء طبيعي، اشربوا اليوم وليس غدا، وصلتم، وصلتم. وكان الذي يمر، يتوقف بالقرب من الرجـل وطـائره العجيـب، وغالبا ما يستجيب لنداء الطائر فيأخذ جرعات قليلة من أقداح الماء الصغيرة المرصوفة على عربة ذات عجـلات أربـع يدفعها الرجل أمامه، ومع اقتراب حافل من العربة، قال لـه الرجل في شبه توسل: ارو ظمأك مـن عنـدي. سـتجد أن جسمك ارتسمت فيه مياه أقداحي حتى لتحس أنك نلت فـوق ما تريد. ومرت لحظات، قبل أن يتأكد حافل أن الرجل كـان يعنيه بكلامه. كان حافل يريد أن يسأله بتهكم قـائلاً: وهـل تريدني أن أذهب إلى مكان آخر غير المكان الذي يوجد فيـه الماء يا حاج؟! لكن الطائر سبقه إلى الكلام فتكلم: وصـلتم، وصلتم، ماء طبيعي، ماء طبيعي، اشربوا اليوم وليس غـدا، وصلتم، وصلتم وما أن أنهى مقطوعته الترحيبية حتى قفـز إلى الحلقة المعدنية المثبتة على خد سيده، فدخل في وسـطها واتجه بجسمه ناحية حافل، فصار كأنـه الجـزء الخرافـي المفقود من وجه بائع الماء. عندئـذ سـمع حافـل الرجـل أو الطائر – لا يدري في الواقع أيهما الذي كان يـتكلم لأن

فم الطائر كان أيضا يتحرك مثل فم سيده، وكـان بمنقـاره الطويل الدقيق يكاد يكون مكملاً لفم الرجل – سـمع حافـل أحدهما أو كلاهما معا، يقول له: جرعة واحدة من أنقى ماء في هذه المدينة يا سيدي فيها الجواب الذي تريده عن السقاة. لا يتذكر حافل أنه تحدث عن السقاة على الإطلاق في وقفته تلك. شعر بحرج شديد، لأنه حسب تصوره أصـبح سـهلاً مكشوف الباطن أمام الناس. لقد كان مقتنعا منـذ البـدء أن قدرته على إخفاء أفكاره وانفعالاته الداخلية ضـعيفة وغيـر جديرة بالثقة ، لكنه ما كان يتصور أنه بمجرد أن ينتهـي أي شخص من التحديق فيه، يكون قد عرف عنه كل ما أسره في نفسه. وخطر بباله أن الشيء الوحيد الذي يكشف ما بداخلـه بسهولة شديدة ووضوح تام هو المصباح بعد أن يضيء، قبل ذلك يكون جسما باردا غـائم السـريرة لا يمكـن اختراقـه ولا يكلف أحد نفسه لأن يرفع إليه بصـره. وتسـاءل هـل يضيء هو أيضا بما في صدره من هواجس وأفكار حالمـا تصبح على قدر معين من الحساسية وإقلاق البال؟. لا يدري، لكن هذا الرجل الذي يلح عليه بأن يتناول جرعة من المـاء الذي يبيعه في أقداحه ، لا شك نظر إليه بعـين مـن يـرى

المصباح مضيئًا. على أي حال، لم يقل الرجل أو الطائر مـا قاله مصادفة، فاربما وصلت أخبار بحثه عن السقاة إلى كـل مكان. ليكن، فهو بالفعل يتمنى أن يعـرف أي شـيء عـن السقاة، وعن طبيعة الماء الـذي أسـبغوا عليـه البركـات والقداسة. كان يريد أن يعرف كذلك من أي شـيء صـنعت هذه المدينة العجيبة المرنة التي تنبسط وتتروى مـع حركـة الناس، وتصغر وتكبر مع أحوالهم وأوضاعهم العامـة فـي الحياة، جرعة واحدة يأخذها، لمعرفة حقيقة السقاة، وأقـداحا عديدة يشربها ليوري ظمأه الشديد بعد ذلك. وسقطت الجرعة في جوفه مثل كرة طين باردة وناعمـة، واسـتغرقت فتـرة طويلة قبل أن تصل وجهتها الأخيرة وتتفتت. لم يشعر بـألم، لكنه أحس بالكتلة المائية تنفجر إلى شظايا وقطـرات ورذاذ وما تبقى تحول إلى سعادة غامرة تتخبط لوحدها في العـراء لأن أحدا لم يقو على احتمالها. ما تبقى هو صوت الجـدول في الصخرة بعد أن تضاعف جريانـه علـى مـر السـنين فتحولت الصخرة إلى تراب لأن تجربة أن تكـون صـخرة للأبد وقعت في المكان الخاطئ. لكن المذاق، رغم ذلك كـان في النهاية كما لو أنه ليس عن المتعة واللذة وحدهما يريد أن

يعبر وإنما عن الجرعـة نفسـها. عـن الشـيء الغريـب والغامض الذي يمكن ملاحظته بصورة عابرة، ويمكن مـع بعض المجازفة الوصول إليه، ولكن لا يمكن تفسيره، شـيء أقرب ما يكون إلى الشعر، أو إلى الحب الذي فـي لحظـة صار عتيدا، أو إلى الإلهام قال له الرجل أو ربمـا الطـائر: منذ هذه اللحظة ستعيش بالمقدار الذي استبقيته في داخلك من عطش وبه ستعرف على الدوام طريقك إلى الجرعة المدخرة لك في كل مرة تحتاج إليها. ووجد حافل نفسه، ولما تـزال تفاعلات الجرعة تتعاظم فيه، أن رغبتـه لمعرفـة السـقاة اندفعت بعيدا عنه وحل مكانها شيء آخر مختلف.

ما عاد يفكر في أمرهم كما كان يفكر فيه مـن قبـل، وكأنه وصل إلى نهاية الرحلة مع تساؤلات اكتشف أنها يمكن أن تقوده إلى الفهم لو فكر فيها بطريقة مختلفة. كأنه، اكتشف أنه كان يبحث عن العناصر، عن السقاة أنفسهم، بينما أصبح يرجح الآن، أنه كان أحرى به أن يبحث عنهم في الرمـوز والإشارات وبالطبع ، سيقوده ذلك إلى الدخول في المدنية من جديد، وتلمس معالمها وأبعادها وميكانيكا الحركة فيها برؤية لم تنفتح لوعيه إلا قبل لحظات. رأى الآن كيـف يبـدو لـه

الأمر، وكيف بدا واضحا، في المقابل، أنـه يجهـل كيفيـة التعامل معه. عاد الطائر إلى كتـف الرجـل وراح يـردد: وصلتم ، وصلتم

.....

عندما فتح عينيه، وجد الشمس تحرث السـماء علـى مسافة قريبة فوق قدميه. كان وحده نائما منذ الليل في العراء القاتل للأبنية المتهدمة التي تذكر أنه دخل محيطها مع رجل. وتذكر أنه كان في غرفة حبلـى بـألوان عديـدة. وتـذكر الفانوس، وتذكر الطراحة، وتذكر المخدة. وتذكر أنه طلـب ماء وألح في الطلب. بعد ذلك لا يتـذكر مـا الـذي حـدث إلا لحظة دخوله الحلم وما رأى فيه؟!!. الآن، لا يوجد رجل، ولا توجد غرفـة، ولا فـانوس، ولا طراحـة، ولا مخـدة، ولا أحد غيره في المكان. المخدة لم تكن في الواقع إلا طوبة متآكلة يغطيها الرماد والسخام الناشئ عن مخلفات موقد قديم ركدت فيه. الطراحة المزعومة ليست سوى الأرض الخشنة الزائغة عن طبيعتها الأولى والمغطاة عن آخرها بالأنقـاض والرائحة الكريهة. لاحظ أن عقارب الساعة في يده تعطلـت حركتها وتوقفت بالقرب من الثانية عشرة ليلاً. لكنه يتـذكر

جيدا أنها كانت في حدود الثامنة عندما دخل المنطقة واقترب من هذا المكان، ذلك يعني أنه أمضى وقتًا طويلاً نائما في مكانه محسوبا على المنطقة كجزء من أنقاضها التافهة، نهض مرعوبا مما حدث، غير مصدق أنه يمكن أن تلعب به الجن بهذه الطريقة السمجة. لا يوجد تفسير آخر. ولو وجد، فلن يكون أقل تفاهة مما صار. وتصور الحادثة على أنها نكتة متعمدة كان هو الطرف الذي مثل فيها دور الضحية المنتخبة من أجل الضحك والفرفشة وتضييع الوقت من وجهة نظر ذلك الجني أو مجموعة من الجن استدرجه أحدهم إلى المكان ولبسوا عليه الزمان والمكان والوعي. لكن الحلم في ذاكرته احتفظ بصفائه ورونقه حد أنه يتذكر تفاصيله الصغيرة كلما استعاده وركز في أحداثه ومجرياته. وخشي أن تكون الحارة انقلبت فيها الأوضاع من أجله فأسرع عائدا من حيث أتى ليبدد عن أمه فجيعة فقده. هناك سيصلي الفجر أيضا. وهناك يفترض أنه سيجد الرسام. وأن السماء الـ بلا خدوش والصافية تدفعه إلى رسم عشرات الأعين على مجموعة من الصواريخ ثم إطلاقها فوق البلدة ليرى ما يحدث فيها ويستكن في جلدها من خفايا. وأن الرسام لم يعد

ذلك الشبح الذي يأتي خفية ليضع ودائعه الغامضة في جدران المدينة ليتحمل هو وزرها لدى الشرطة والقانون ونظـرات المجتمع وكما حدث في الحلم، سيجده في الرموز والإشارات أيضا عندما يلتقي به سيقول له عن كمية الحنق والشوق التي امتلأ بها قلبه عليه. لكنه، في المقابل، سيحكي له عن الثقوب التي بسببه يستطيع أن يلج منها عبر الجدران من لا يتسع له الباب وسيحذره من الأبواب الكبيرة بالذات. أبـواب الحديـد التي تعب في صنعها الحدادون في الورش، وظلـوا أيامـا طويلة يطئونها بالأقدام، ويحتسون تحتها الشـاي، إلـى أن انتهوا منها ، ثم لما ركبوها في أماكنها قدسـوها وصـاروا يتحاشون لمسها أو الاقتراب منها. وسيحذره بشدة من رسـم أية صورة على جدار بيت أمه لئلا يتشاءم منها الجيران كما تشاءم الناس من أصحاب الجـدران التـي عليهـا صـورة ورسوماته.

لم ير أحدا في الطريق يبحث عنه أو يناديه. شـوارع هادئة، وأعين منتفخة من أثر النوم، أو مـن أثـر الرتابـة والسكون والملل. الخط الزمني الذي تبزغ في أوله المدينـة، يمسك المساء بطرفه الآخر ويشده بقوة. نفس المساء الـذي

يمسك بنهاية الخط الذي تبدأ منه الحكايات، والوجوه في كل يوم، كأن المدينة، في تصور حافل، تعيد بـنفس الأخطـاء والركاكة قصتها اليومية على أمل أن تنتهي منها قبل الظلام. لكن، كيف لم تتنبه الحارة لغيابه ليلة كاملة؟.. الحارة علـى الأقل؟!. كان من المفترض أن تجد في حادثة غيابه، وخـزة حادة في شريان حياتها التقليدية السـاكنة، فتـنهض عندئـذ للبحث عنه، على اعتبار أن أحد أبنائها اختفى بطريقة غريبة وغير مفهومة. ليست، كل يوم، تختفي مدينة أو بلـد وإنمـا يختفي، ويموت، الكثير من البشر فـي ظـروف وحـوادث مختلفة، بعضها معروف وبعضها غامض، وعليه فلم يحدث أن ذهب أحد من الناس للبحث عن مدينة ضاعت أو اختفـت فجأة، بل العكس هو الذي يمكن أن يحدث وعندها لن يكـون بعيدا عن المنطق أن يتفق الجميع علـى أهميـة الشـخص المفقود. كان حافل، عندما يفكر بذلك الشخص، يتمنـي لـو يكون هو الشخص المفقود، لكن أحدا، لم يسأل عنه كما يبدو، ولا حتى مسلط، ولا بقية أصدقائه الذين قضى معهم شـطرا كبيرا من عمره.

روى للتراب خيبته، وهو يركله بقدمه، فطار الغبـار هازئًا من ثقته الكبيرة بالحارة والأصدقاء. قال له التـراب: لماذا لا تتزوج؟. ضحك حافل من الغبار: أتزوج؟. قال لـه التراب في الركلة الثانية: أجل. وتصاعد الغبار بعد الركلـة، وانطلق أمامه كحرس شرف متأجج العاطفة، فضحك حافـل من هشاشة موكبه وأيقن أنه إن لم يكسر قدمه بحجر ويتوقف عن هذه الترهات فسوف يؤول به الحال إلى أن يقبل قدم أول امرأة تقابله ويطلب يدها للزواج. هيا افعلها، قال له تـراب أول شارع يستقبله في المدينة. وأضاف تراب ذلك الشـارع: ألا تلاحظ، أنك لحد الآن لم تلمس أنثى سوى أمك العجـوز الكسيحة؟ هناك فتيات جميلات في الحارة يشتهين النوم معك لأنك صرت بطلاً في أعينهن. ألم تلاحظ ذلك؟. كلا، أجـاب حافل وهو ينفض نعاله من الغبار على وجه الإسفلت، وأكمل مرغما ليتخلص من الكلمات المختنقة في حلقـه: كـلا، لـم ألاحظ شيئًا من هذا القبيل. بل هناك من يحبك فأنت في نظره الشخص المرتجى لمقاسمته أيام ما بعد العشرين، بصـعوبة همس الغبار بالكلمة الأخيرة ثم تلاشـى. مـن هـو ذلـك الشخص؟ سأل حافل وانتظر الجواب. لكن الغبار كـان قـد

قرر ألا يقول المزيد بعد أن اختار حافل طريقه ومشى على الإسفلت مؤولاً ما حدث على أنـه مـن نزعـات شـياطين الصباح، أو من تهيؤات مزاجه النفسي المقلـوب. غيـر أن الفكرة صمدت في رأسه لبعض الوقت. لم يفكر فيه أصدقاؤه خلال غيابه؟، هذا شيء صحيح. ولم تخطر على باله فتـاة على الإطلاق. ولا فتاة واحدة!. وافق على صحة الملاحظة، وأضاف متحدثًا إلى نفسه على إثر اشتعال خـاطف لوجـه صيته، أخت مساط، في رأسه: ولا حتى هذه البنت الحلـوة استطاعت أن تبقى لوقت طويل في تفكيـري. ثـم تسـاءل معجبا: لماذا؟

مر في طريقه ببيت مرسل، صديقه المتخصص فـي رسم رءوس الحمير علـى الجـدران. رأى بـاب المنـزل مصحفًا بخرس الصباحات المعتاد في مثـل هـذا الوقـت. صراحة الشارع في الصمت عارية مثـل ورقـة فارغـة. صديقه مرسل ليس له أخت، بل إخوان سبعة، جميعهم من أم أخرى غير أمه، وهم جميعا، مع الأب وزوجتيه، يعيشون في مأوى بمساحة عشة أغنام، الغرف صغيرة ومسقوفة بأوصال الزنك المغطاة بمشمع سميك عن المطر. وعلق حافل علـى

ضيق المكان: ربما بسبب ذلك جاءوا كلهم أقزامـا بعيـون ضيقة وبوجوه فئرانية شاحبة. المكان الضيق يورث سـاكنيه بعض ملامحه وكذلك المكان الواسع. ذلك ما تعلمه حافل من شاكر، صديقه الآخر، الذي يسكن في بيت واسع للغاية ولـه حديقة خلفية رائعة. شاكر طويل القامة، ببشرة فاتحة وكأنـه تركي من الأناضول. له أخت بالطبع، لكنها متزوجة من أحد شيوخ الخليج وهي تقيم معه في قصره المنيف فـي مدينـة بعيدة ولا تأتي أهلها إلا في رمضان حيث يعتكف هـو فـي الحرم كما يقال، وتقضي هي بعض الوقت مع أهلها بالبيت. قيل أن أمها عندما ولدتها، رأت في النـوم وكـأن السـماء طاحت فصارت تحت والأرض ارتفعـت فصـارت فـوق، فظلت الأم زمنًا طويلاً خائفة من ذلك الحلم، حتى جاء وفـد خاص يطلب يد ابنتها لذلك الشيخ.

خاطب حافل نفسه متحسرا: هكذا هـم الشـيوخ، يـا حافل، لا يتزوجـون إلا أجمـل الجمـيلات، ولا يسـكنون إلا في أفخم القصور، ولديهم خدم وحشم وسيارات فـاخرة، ويتمتعون بأرفع الخدمات في كـل مكـان، وإذا تحركـوا ، انتفخت من حولهم مظلة كبيرة من الجنود والحراس، ودانت

لهم الشوارع، وإشارات المرور، وفوق ذلك يرغبـون فـي دخول الجنة. وقال أنه طالما حسدهم على تلك الوجوه الطليقة والخدود الطرية التي يواجهـون بهـا النـاس. أمـا تلـك الابتسامات المعبرة، فلا يدري من أين جاءوا بها مـن شـدة روعتها ورونقها الأخاذ. وتساءل وهو يتجاوز منزل ضـابط الشرطة متجها إلى بيت أمه: ترى، هـل يمكـن أن يتغيـر مرسل ويصبح مثلهم في النعمة وفي المظهر البهي، لو صار شيخًا هو الآخر؟. ضحك من سذاجة تصوره، واتهـم نفسـه بالغباء لأنه اختار شخصا بائسا دميم الوجه انحصرت موهبته في رسم رءوس الحمير فحسب!!. وانفجر ضاحكًا بصـوت عالٍ، لكنه وجد نفسه يعقب على نفسه: ومتي كانت الدمامـة أمرا يحتقر بسببه مرسل يا حافـل؟!. هنـاك الكثيـر مـن الدميمين الطيبين في العالم وبعضهم يعيش مثل مرسل سعيدا وراضيا بحياته. ثم لنفسه أردف سؤالاً آخر: ولكـن لمـاذا أتحدث عن مرسل ولا أتحدث عني أنا؟. هل يصلح وجهـي لأن يكون وجه شيخ نعمة؟. ولم لا ؟ ليست النعمـة والجـاه والثراء والسلطة هي المقياس ليكون المرء شيخًا حقيقيا بـين الناس. يمكنني من الآن أن أكون شيخًا، ليس بما أصبح عليه

أولئك البشر من الغنى والجاه العظيم، وإنما بما أمتلـك فـي داخلي من حب للحياة والبشر، وبمـا عنـدي مـن ضـحك وسخرية ومرح رغم المتاعب. نعم، يمكنني أن أكون شـيخًا حقيقيا بيني وبين نفسي. بيني وبين مفرقعاتي. وبيني وبـين أصحابي أيضا. ومن هذه اللحظة، لو جاءني من يحلف لـي أنني غير ذلك، لقدمت بلاغًا ضـده إلـى الشـرطة بتهمـة التطاول. ينقصني فقط الكثير من المال والكثير مـن الحـظ لأظفر بواحدة مثل أخت شاكر لتصير زوجة لي. أريد امرأة جميلة.

غير أن مسلطًا عندما فاجأه طالعا إليـه مـن إحـدى الزوايا القريبة من بيته، سأله مندهشًا.

- حافل . ما هذا؟. ما بك بهذا الشكل؟

لم يفهم حافل ماذا كان يقصد صـديقه الـذي أرعبـه بخروجه المباغت. ليس من ثمة خطـأ فـي شـكله علـى الإطلاق، إلا إذا كان يقصد ما علق بثوبه من غبـار بسـبب نومه على أرض "الهدام" بيد أن مسلطًا لم يكن ينظـر إلـى ثيابه بل كان ينظر إلى وجهه. وكاد أن يقول صرت شيخًا!.

لكنه، نعم، ذكّر حافل نفسه، لم أغسل وجهي. لا بد أنه يقصد أنني لم أغسل وجهي:

- يالها من قصة لم تحدث يا مسلط. هل تـدري أيـن نمت ليلة البارحة؟

- أين نمت؟..

- في "الهدام"

- هل تمزح معي؟.

- أقسم أني نمت فيها ليلة كاملة، وأنا الآن قادم منها.

- ولماذا فعلت ذلك؟! هل جرى لعقلك مصيبة؟!.

- لست أدري في الحقيقة، لقد نمـت هنـاك وانتهـت القصة. ولكن هل حقًا لم تتنبهوا إلى غيـابي أنـت وبقية "البكّاشين"؟.

- إن أردت الصدق، لم نشعر أنك غبت، لكنـا سـألنا عنك أول المساء ثم ذهبنا إلى المقهى بعد أن قيل لنا أنك عدت إلى البيت. ولكن، لماذا وجهـك ملطـخ بالسواد وكأنك قادم من خيشة فحم؟!.

- حقاً؟!. لم ألاحظ ذلك. ربما كنت نائما على رمـاد، هناك الظلام حالك مثل العمى.

وفي طريقه إلى أمه مر بأبواب كثيرة مقفلـة، وقطـع شوارع عديدة فارغة، وهو يدعك وجهه بأصـابعه المبلولـة بلعابه لإزالة آثار الفحم التي يقول مساط أنها تغطيـه. مـن أعلى الجبهة حتى الذقن اندلعت معركة كر وفر بين اللعـاب والفحم، وجاست الأصابع بين النتـوءات والغضـون تـدفع بالنهاية إلى ذروتها وتحمل الوجه على الخروج عاريا مـن الخديعة. كان يحس بأنامله تحترق تارة بمساحيق فائرة تغطي وجهه، وتارة يلاطف اللعاب الحركة والملامسة فتغدو المهمة مريحة وممتعة حتى أنه ليخيل إليه في بعض اللحظات أنـه يرى وجهه في أصابعه.

حزم مفرقعات كان اشتراها لساعات مرحه، قايض بها صاحب مطعم يقدم الفول والقلابة في الحـارة. كـان وعـد حوش المساكين بعاصفة هوجاء من المفرقعات والضحك ليلة البارحة، لكنه وجد نفسه هذا الصباح جائعا فـي الطريـق، فوهبه صاحب المحل صحنًا به ملعقة فول وعليه خبز تميس. بعد ذلك سأله صحاب المحل: ألـيس ذلـك بأفضـل مـن "الطراطيع"؟! أجاب بسرعة: كلا. لأن الفول الذي قدمته لـي قليل وبارد والخبز يابس. غبنتني في المقايضة أيها السـيد،

إذ بينما تخلصت أنت من بعض الفول البارد والخبـز غيـر الشهي الذي يرفضه الزبائن، أراني مضطرا لشـراء حـزم جديدة لأواصل طريقي نحو غايتي. والفول يا سيدي غـذاء ثقيل يصيب معدة أمثالي بالتلبك والآلام المبرحة عندما يفسد في صحنه، في حين أن "الطراطيع" تبث مثل العافية في بدني حالما أراها تنفجر بالقرب مني. يضحك صـاحب المحـل، فيلاحظ حافل أنه لا يضحك وحده بل كرشه الكبيرة تضـحك معه أيضا ويسمعه يقول: الآن صارت العافية في "الطراطيع" بعد أن شبعت من صحن الفول وأكلت خبزا بكامله! والـتقط طبقًا فارغًا ليملؤه بالفول، فيما العرق ينز من نحره وإبطيه. رائحة جسمه الضخم تتجول بالقرب منه وتتمدد أحيانًا إلـى الطاولات المجاورة. ولاحظ حافل كذلك أن الوزرة تراجعت إلى ما تحت السرة بفعل اهتزازات الكرش المتلاحقة فبـدت تكة السروال داكنة اللون من شدة التصاقها الطويـل بأسـفل البطن.

توقف عن شرب الشاي، وحول بصره ناحية الأقـواه القليلة التي راحت في صمت تتسابق في أداء واجبها اليومي بلا اكتراث لما يحدث، يملؤها شغف واحد هو إنهاء المهمـة

فحسب. ونظر في كل عين، فرأى نفس المشهد الذي تحمله العيون الأخرى للمطعم من الداخل. يحدث ذلك بالرغم من أن العيون تتحاشى أن يلتقي بعضها ببعض أثناء الأكل، أو أثناء انتظار الطلب، الغتر المنشأة والعقل والثياب النظيفة كأنها دخلت المطعم لأن أصحابها أرغموها على ذلك، في حين يفترض من يراها أنها متجهة إلى مكان واسع يوجد به رقص وأنغام وإطلاق رصاص في الهواء. أو.. إطلاق صواريخ.. ذلك أفضل، قال حافل فالرصاصة تنطلق إلى أعلى لتنطفئ كليا وتضيع قيمتها في السماء، أو ربما تنطلق إلى شخص لتقتله، بينما تؤدي الصواريخ عروضها الحية فوق الجميع وهي جذلة تصفر للكبار والصغار على السواء. لكن التجهم، أكد حافل، يدخل المطعم ويخرج منه بالوجوه ذاتها وبنفس التهذيب الذي يحرك الكراسي بهدوء ويبقي الموائد نظيفة. أطباق الفول والقلابة وحدها التي، جيئةً وذهابا، تفشل في أن تظل صامتة ومتجهمة طوال الوقت. أدوات موسيقية تفضحها أصواتها الجميلة كلما انتقلت من مكان إلى آخر. تقع على أسطح الموائد فتصدر رنة مواساة للزبون وتهتز أحيانًا بين يديه كراقصة ملهى في فيلم

مصري. أو تسقط على الأرض بالخطأ لتملأ المكان ضـحكًا وتنديدا بأرجل الطاولات والبشر.

ويهز حافل رأسه مؤيدا ما خطر على باله في الحال: نعم، يمكنها أن تصحبني إلى حـوش المسـاكين كـل هـذه الأطباق التي في حوزة صاحب المحل، وهناك ألعب معهـا لعبة كريمة لم تحدث من قبل. أدعو كل مـن فـي الحـوش للوليمة بلا استثناء. لأطباق الفول الساخن والخبز الشهي دون مقابل مادي. وبعد أن يفرغوا من الأكـل، أجمـع الأطبـاق لأجدل من أصواتها الشجية مهمتي الأخطر التـي علـي أن أذكرهـا أمـام الجميـع. سـأخبرهم، أن بيـنهم شـخص أعمى. ،أمامهم سوف أعد الأطباق ليقتنعوا باكتشافي حالمـا أصل إلى طبقي الذي لم آكله. عندها سـوف يضـطربون، ويسألون طبق من هذا الذي في يده؟. مـن هـو الشـخص الأعمى الذي لم يكتشفه جمعنا الحاشد رغـم أننـا بعيـون مفتوحة نظر بعضنا إلى بعض عشرات المرات؟!. أنه أنـا، سأصرخ فيهم، ضاربا بيدي على صدري ليرانـي القاصـي والداني، وليتفرس في عيني من وقف بالقرب مني، وبالطبع، سأصيبهم بصدمة قوية لأنني أمامهم سوف أخرج من جيبـي

صاروخًا ثم أشعل فيه النار. بل إنني، إمعانًا في تعميق شعورهم بالصدمة، سأوزع على كل واحد منهم مفرقعة صغيرة، قابضا بيدي على اليد التي تمتد إلي، واضعا في راحتها المفرقعة النائمة حتى تلك اللحظة.

ضحك حافل، بعد أن أخذ رشفة من الشاي، ما حدا يصاحب المطعم أن يتوقف عن العمل ويلتفت إليه مستفسرا عن سبب الضحك الذي جهر به وجهه بغتة؟!. لا شيء قال له. كنت فقط أفكر في أي شيء لأضحك. ولمنع صاحب المطعم من طرح سؤال آخر طلب منه أن يتظاهر بالعمى كلما رآه يتصرف تصرفًا لا يفهمه. غير أن صاحب المطعم مغضبا، أمره بمغادرة المكان فورا لئلا يثير سلوكه الغريب ومظهره الرث حفيظة الزبائن، وينفرهم من المحل. هكذا سيكون الحال مع الجمع الحاشد في حوش المساكين الذين بناء على رغبته جمعهم، وهو يحتسي الشاي، ووزع عليهم أطباق الفول وهو في مكانه داخل المطعم. سيطردونه أيضا من الحوش، أو على الأقل سيتفرقون عنه متهمينه بالحمق وخفة العقل، إذا لم يشرح لهم لماذا ادعى أنه أعمى في حين أنه في الواقع غير ذلك؟! يعتقد حافل أنه في تلك اللحظة

ستكون الرغبة لديه كبيرة في إعلان الجـزء الثـاني مـن اكتشافه وهو أنهم أيضا عميان. لكنه، إذ تنقصـه الشـجاعة لمواجهة العواقب المتوقعة، سيكتفي بشرح ادعائـه العمـى بطريقة غير مباشرة.. سيخطب فيهم: إني أراكم، ولكن ماذا أفعل بعادتي السيئة في التعامل مع صواريخي ومفرقعاتي؟! إنني أضعها في جيوبي لأفرقعها هنا وهناك إشباعا لترواتي في اللعب والتخيلات، أو أدوس عليها عندما يضطهدني مـن يملك القوة على مواجهتي واضطهادي، إنني ، في كل مـرة أفعل ذلك، أردها ظاهرا إلى رغبتي في حرق الغـم الـذي يصيبني بسبب ظلم الآخر لي، بينما، فـي الحقيقـة، كـان يفترض أن أرد السبب إلى رغبتي في إظهار قوتي فقط على الأشياء الصغيرة التي لا تملك الدفاع عن نفسها. فأنا أعمـى لأنني، من هذا الجانب ومن جوانب أخرى كثيـرة، لا أرى الأشياء حيث يجب أن تكون ولذلك تأتي أفعالي في الغالـب وفقًا لرؤيتي الخاطئة، وأنا هنا لا أختلف كثيرا عمـن يملـك القدرة على مواجهتي واضطهادي ولا يتردد في التنكيل بـي بناء على تبريرات من عنده ورؤى تخصه. ماذا عساي أقول أكثر من ذلك، لأشرح لكم أنكم، في حالتي هـذه، يمكـن أن

تكونوا أقوياء وذوي قدرات كبيرة في التكيف مـع الحيـاة، ولكنكم عميانًا ستعيشون طوال حيـواتكم، مثلـي بالضـبط، أو مثل القوى العمياء التي تطحن ما تحتها من أشياء متى ما دعت الحاجة إلى فعل الطحن لتثبت أنها فوقها ما تزال.

فكر حافل في أنه ربما بالغ في تخيل اصطفاف الحشد أمامه، وفي إنصاته له، ليقول مثل هذا الكلام الذي أدهشه أنه قاله. يرجح أن المفرقعات الصغيرة التي وضعها في أيديهم، كما تصور، هي التي نقلته إليه من الراحات ومن الهمسـات الخفية ، وليس هو قائله الأصلي. وتساءل: ما الحكمة في أن يتحول الشخص إلى خطيب بعد وجبة فول فاسدة؟!.. لـيس من عادته اصطناع البلاغة في الكلام ولا من فضائله حـث عضلات لسانه على أداء أفضل من أجل أن يقول أيها الناس. المفرقعات التي وزعها على الحشد، من الطبيعي أن يؤكـد حافل بأنها لم تكن من نوع واحد بل من أنواع عديدة كما كان تعود أن يحمل فـي جيبـه المفرقعـة العاديـة مـن نـوع "woodpecker " يمكن أن تمتص العرق من راحـة اليـد دون أن تفقد قدرتها على الانفجار. يمكـن أيضـا أن تـدلي لفائفها الورقية بشيء من طبيعة الشخص الذي يحملها بيـده

ويغلق عليها أصابعه. صحيح، لها شكل ركيك، بـل تبعـث هيئتها على الإحساس بأنها ربما صنعت لترمز إلى الفجاجـة الخطرة، لكنها بارعة في إخفـاء خطورتهـا فـي جرمهـا الضئيل. ومن غير المستبعد أن العصفور نقار الخشب الذي جعلته شعارا لها إنما رسم عليها ليعبر عن قوة تأثيرها الخفية إذا ما علمنا أن ذلك العصفور يبني عشـه داخـل جـذوع الأشجار حفرا بمنقاره. أمـا المفرقعـة التـي مـن نـوع "butterfly" فإن الشرر الغزير الذي تطلقه عنـد اشـتعالها لاحظ حافل، أنه يربك العين ويوقعهـا فـي فتنـة الضـوء المتبعثر الذي تستحيل السيطرة عليه. وهي بقدر مـا تفعـل ذلك، وبقدر ما تتفنن في خلب الأبصار بنوافيرها الضـوئية الصغيرة، كأنها، من ناحية أخرى، تقـف موقـف خطيـب أو شاعر في الهواء الطلق انهمك في قـول مـا لديـه. إذًا، لا يستبعد حافل أن ذلك الكلام الذي تفوه به، وهو يخرج من المطعم، جاء نقلاً عن مفرقعـات انغلقـت عليهـا الأكـف والتصقت جيدا بالراحات الرطبة.

وظن هو أنه أبصر شيئًا ما فيما قال. بل أحس أن في الكلمات تلك شيئًا من معاناته بالفعـل. تنفجـر علـى يـده

المفرقعة لماذا؟! ولماذا في المكان تحدث صوتًا قويا، أكبـر في مداه وتأثيره على الأذن، من أصوات المفرقعـات التـي يلهو بها غيره؟! إن مـن عادتـه، حالمـا يمسـك بإحـدى المفرقعات لينسفها، أن يمررها على أصابعه ، ثم يقفل عليها راحة يده ضاغطًا عليها بقوة، ليحس بجسمها وصلابته فـي باطن كفه قبل أن يحيلها الانفجار إلى أشلاء.

(١٠)

مساء، حين دقت مقرعة الوقت تمام السـابعة، كـان الحوش شبه خالٍ من الحركة، وكان من المفترض أن يكون كذلك، نظرا لتحول الزحام إلى موقع آخر في طرف البلـدة حيث ستقام مباراة في كرة القدم، بعد صلاة العشاء، حـدثت أشياء رآها البعض ضرورية بمناسـبة العـرض الكـروي المشهود بينما وصفها البعض الآخر بأنها محض خزعبلات لإيهام الناس بأن كل شيء على ما يرام. انتشر الجنود فـي المنطقة واغتنم طاقم التلفاز الفرصة لربط الشاشة من الخارج بعيون المشاهدين الذين لم تسعفهم حظوظهم بالمجيء، ليروا وقائع الحدث الرياضي الهام، وليشهدوا بسعادة بالغـة علـى مدى التقدم الذي واكب عالم الإعلانات. ومن الداخل، اغتـنم طاقم التصوير الفرصة ليعرض للسادة المشاهدين شريطًا حيا لوجه من وجوه نهضة البلاد الحضارية في أواخـر القـرن العشرين. الأضواء الكاشفة المركزة على الوجوه من جهات ثلاث، كانت ضرورية أيضا، وذلك لإضفاء ألق البطـولات على لهيب الحماس الكروي الذي يصم دويه الآذان. المعلـق الرياضي أيضا، ما كان ليغيب بالطبع عن قائمـة الأشـياء

الضرورية لآلة الميكروفون لتعمل عملها المنتظر فـي نقـل الحدث بالصوت المفخـم والأداء التقنـي المتـرع بـالنبرة الاستعلائية للآلة العتيدة.

في مكان آخر، وبعد صلاة العشاء أيضا، حدثت أمور لم يهمس بها لأحدٍ شاهد عيانٍ، إذا ما أن بدأ حافل في إعداد كوب شاي بالزنجبيل لأمه، وكانت قد أمرعت بشرة وجههـا ببعض الطمأنينة على سلامة ولدها، حتى كانت يد بارعة في الرسم قد انتهت من رسم صورة جديدة على جدار المنـزل من الخارج. كان الشارع في تلك اللحظات على هيئة أخدود طويل يتجول في العتمة. في الداخل فوجئ حافل بقوة تماسكه الغريب، وعبثًا حاول عزو الأمر إلى احتمال وقوعـه فـي أوهام جديدة تجاه ما يحدث له وما يدور حوله. بتاتًـا، لـم يتصور أنه يمكنه أن يقف متماسكًا، لما واتاه إحساس جارف بأنه يستطيع أن يرسم فورا وجه إنسان. بالضبط، كما مـرر صباح اليوم أصابعه على وجهه وراح يدعكه عظمة، عظمة، ونتوءا ، نتوءا وكأنه وجده لتوه، أو كأنه يشكله من جديـد. لكنه متماسك الروح والأعضاء، وجد نفسه يقف، ويتحـرك، ويحمل إلى أمه كوب الشاي الساخن، فيراها تمد يـدها إلـى

الكوب، ويتأمل وجهها، ويجلس عند قدميها، ويحكي لها قصة طريفة تقول بدايتها، أنه كان هناك شخص وجد نفسه يبحـث عن بيته، لكنه قطع مسافات طويلة، وعبر أمـاكن عديـدة، وقابل في النهاية، بعد أن رأى الكثير من البشر والكثير مـن الأمصار، ما ظن أنه باب بيته فاحتار في أمره وفكر مليا هل يطرق الباب أم يفتحه ويدخل؟!.

انتهت : يوم الاثنين (٣٠ يونيو ٢٠٠٣)

السادسة وعشر دقائق مساء:

: نفس المدينة.

: نفس المكان.